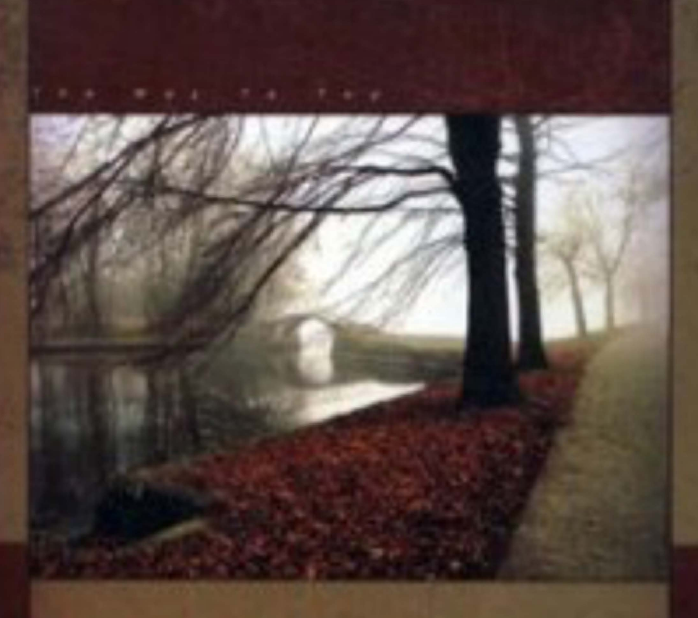


الهمة

طريق إلى القمة

تأليف

محمد بن موسى الشريف

معالم على طريق الصحوة (٣)

الهمة

طريق إلى القمة

د. محمد موسى الشريف

الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

رقم الإيداع: ٢٦٣٩٢/٢٠٠٧م

الترقيم الدولى: I.S.B.N

977-6142-75-3



18 شارع مصر - أحمد حلمي - شبرا مصر تليفون 0101068135
newandalus@hotmail.com

إذا هبت رياحك فاغتنمها

فإن الخافقاتِ لها سكونُ

وإن ولدت نياقُك فاحتلبها

فلا تدرى الفصيلُ لمن يكونُ

❀❀❀

قال حكيم من الحكماء:

«لما كنت حَدَثًا كنت أتصور أن الرعد هو الذى يقتل الناس، فلما كبرت علمت أن البرق هو الذى يقتل، ولهذا عزمت من ذلك الحين على أن أُقِلّ من الإرعاد وأكثر من الإبراق».

مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله موفق من شاء بما شاء، والصلاة والسلام على خير الرسل والأنبياء، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه البررة الكبراء، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم البعث والجزاء، وبعد:

فهذه هى الطبعة الرابعة من هذا الكتاب، ولله الحمد والمنّة على ما وفَّق ويسَّر.

وقد سرت فى هذه الطبعة على المنهج العلمى «الأكاديمى» فى ترجمة الأعلام، والفهارس المتعددة، إضافة إلى ما كان فى الطبعات السابقة منها.

وقد خاطبنى بعض إخوانى أن أوسع الكتاب قليلاً حتى يكون كالكتب الأخرى التى صُنفت فى شأن الهمّة -وهذا الكتاب هو أولها صدورًا فيما أعلم- لكنى آثرت أن يكون كما أردت له أن يكون: دليلاً للمبتدى المؤتسى وتذكرة للمنتهى الألمعى.

والله أسأل كمال التوفيق، إنه على كل شىء قدير، وبالإجابة جدير.

وصلِّ اللهم على نبينا وسيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

المؤلف

محمد بن موسى الشريف

ص. ب ٤٢٣٤٠ جدة ٢١٥٤١

MMALSHAREEF @ Yahoo.Com

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العـالمين، وصلاةً وسلامًا تامَّـين كاملين عطرين على سيد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذه الطبعة الثالثة -ولله الحمد- من كتاب «الهمّة»، وقد تميزت عن الطبعتين السـابقتين بزيادات كثيرة متنوعـة، أهمها فى نظرى ما أوردته عن حال الغـربيين فى بداية القرن التـاسع عشر ومـا بعده، وذلك إبان ثورتهم الصناعية الكبـرى، وما كان بعضهم عليه من همـة عالية، ولم أقصد بذلك تمجيدهم -حـاش وكلا- ولكنى قصدت إظهار أنه من سنّة الله فى الكون أن يكافئ المُجِدَّ المجـتهد العامل السـاعى فى الدنيا ويُنيله مرادَه، مسلمًـا كان أو كافرًا، أما الآخرة فلا يكافئ بـها إلا من كان قد اجتهد لوجهه الكريم.

ولما كان بعض أهل الغـرب قد بذل وعرق ونصب وتعب فى سـبيل رفعة قومه، فقد أحبـبت أن أورد بعضًا من تلك الأخبار والأقوال حتى تكون حافزًا -هى وما سبق أن سقته- لبنى دينى لأن ينفضوا غبار الذل والضَّعة عنهم حتى يبزغ لهم -بإذن الله تعالى- فجرٌ جديد.

ثم إن أهل الهمّـة العالية منهم لم يفوقـوا فى ذلك أسلافنا، بل هم قد سـبقوهم سـبقًا عظيـمًا، ولكن لما اقـتربت حوادثهم من عـصرنا،

وحققوا بهممهم تلك مـا نراه من مخترعات وتقنيات، ساغ لى أن أورد بعض أخبارهم على أنهـا من جملة ما يحسن بنا اتبـاعه والأخذ به من الحكم وتجارب الأمم، والله أعلم.

هذا، ووصيتى لكل من يقرأ هذا الكتـاب أن يأخذ نفسه بإرشاداته، ويعمل ما فى وسـعه ليتشبـه بهمة وجدٍّ وعزيـمة أولئك الرجال الذين ذكـرت أخـبـارهم وأحـوالهم، فـإنه إن صنـع ذلك يُرجى له الفـلاح والسعادة، وتمام الأمر والسيادة، والله المستعان.



مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين، الذى خلق الخلق واصطفى منهم المؤمنين، ودلَّهم على ما فيه سعادتهم بقوله:

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾ [الأعراف: ١٧١].

والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، الذين الذين أضاؤوا بهمتهم العالمين.

أما بعد:

خلق الله سبحانه وتعالى الخلق وقدَّر فهدى، فكان من تقديره تعالى أن قَسَم لهم حظوظهم من الدين والعقل والغنى والجمال، وكان مما قسمه الله سبحانه وقدّره على كل إنسان -أيضًا- حظُّه من الهمّة والإرادة.

والبشر يتفاوتون تفاوتًا عظيمًا فى هذا الأمر، فمنهم من تعلو به همته حتى يكاد يبلغ حدود الكمال، ومنهم من تسفل به همته حتى يصبح حاله أسوأ من الدواب، وبين ذلك من المراتب ما لا يدخل تحت الحصر، وما لا يعلمه إلا الله تعالى.

وإذا تَقرر ذلك فاعلم أن أمر الهمّة عظيم، وشأنها خطير، يجدر بالإنسان المسلم أن يفهمه ويعتنى به، ويحدث به نفسه دائمًا عسى أن يكون من أهل الهمّة العالية فيفوز فوزًا عظيمًا.

وفى هذه الوريقات -التى أسأل الله تعالى أن يباركَ فيها ويضعَ لها القَبول -مباحثُ لا تخلو من جدَّة، توضح معنى الهمّة وكيفية تحصيلها وتطويرها إلى غير ذلك من المعانى المهمة، والمطالب التى تعلو بصاحبها إلى القمة.

ولا يستصغرنّ إنسان شأن الهمّة فيسأل مستنكرًا: هل هذا الموضوع يستحق أن يفرد له بحثٌ، وأن توضع له قواعد ومحاذير؟!

نعم والله الذى لا إله إلا هو، إن للهمة لشأنًا عظيمًا وتأثيرًا كبيرًا على حياة صاحبها سواء أكان فى سن الشباب أم تعداه، ممن يطلب الدنيا أم من طلاب الآخرة، فهى أساس حياة الإنسان، والقطب الجاذب له إلى العزة أو الهوان.

ولا يُستغرب -أيضًا- إيرادُ هذا المبحث ويُقال: إن الكتب التى دلت على أهمية الوقت ودلَّلت على قيمته يستغنى بها عن هذا المبحث؛ إذ الوقت يستثمره حق الاستثمار من علت همته، وعرف كيف يستفيد بها ومنها، وكتب الاستفادة من الوقت ومعرفة قيمته أمر آخر غير مباحث الهمّة كما سيرى القارئ، إن شاء الله تعالى.

وإن مما دعانى لتأليف هذا المبحث ندرة من تكلم فيه وأوضحه، ولم أرَ فيه مصنفًا مستقلاً، ولا أزعم أنى أعطيته حقّه، ولكنى حاولت دخول هذا المضمار والتطفُّل على هذا الشأن، والله المسئول بالإتمام وعليه التكلان.

***

معنى الهمّة

جاء في القاموس:

(هـ م م): «ما هُمَّ به من أمر لِيُفعل».

فالهـمّة هى البـاعث على الفعل، وتـوصف بعلو أو سفـول، فمن الناس من تكون همته عالية علو السماء، ومنهم من تكون همته قاصرة دنيئة سافلة تهبط به إلى أسوأ الدرجات.

وعرّف بعضهم علو الهمّة فقال:

«هو استصغار ما دون النهاية من معالى الأمور»[(١)].

قال ابن القيم[(٢)] رحمه الله تعالى، واصفًا الهمّة العالية:

«علو الهـمّـة ألا تقف (أى النفس) دون الله، ولا تتـعـوض عنه بشىء سـواه، ولا ترضى بغيـره بدلاً منه، ولا تبيع حظهـا من الله وقربه والأنس به والفـرح والسرور والابتهـاج به بشىء من الحظوظ الخسيسة الفانية.

---

(١) «رسائل الإصلاح»: ٢/ ٨٦.

(٢) هو الشيخ الإمام محمد بن أبـى بكر بن أيوب الزُرعى الدمشقى، شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبلـى، ولد سنة ٦٩١هـ. وكان جرىء الجنان، واسع العـلم، كثيـر الصلاة والتلاوة، حـسن الخلق، كثـير التودد، توفى بدمـشق سنة ٧٥١هـ رحمـه الله تعالى، وكانت جنازته حافلة. انظر «الدرر الكامنة»: ٤/ ٢١- ٢٣.

فالهمّة العالية على الهمم كالطائر العالى على الطيور، لا يرضى بمساقطهم، ولا تصل إليه الآفات التى تصل إليهم، فإن الهمّة كلما علت بعدت عن وصول الآفات إليها، وكلما نزلت قصدتها الآفات من كل مكان»[١].

وقد حذر السلف كثيراً من سقوط الهمّة وقصورها، فقد قال الفاروق عمر رضى الله عنه:

«لا تُصَغِّرَنّ همتك، فإنى لم أرَ أقْعَدَ بالرجل من سقوط همته»[٢].

وقال ابن نُباتة[٣] رحمه الله تعالى:

حاول جَسيمات الأمور ولا تَقُل ... إن المحامد والعُلى أرزاقُ

وارغب بنفسك أن تكون مقصراً ... عن غاية فيها الطّلابُ سِباقُ[٤]

وقد قيل:

«المرء حيث يجعل نفسه، إن رفعها ارتفعت، وإن قصر بها اتّضعت»[٥].

(١) «مدارج السالكين»: ٣/ ١٧١.

(٢) «محاضرات الأدباء»: ١/ ٤٤٥.

(٣) شاعر العراق، أبو نصر، عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نُباتة السَعْدى، له نظم عذب، ومدح الملوك والكبراء، وله ديوان كبير، مات سنة ٤٠٥ وهو فى عشر الثمانين. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٧/ ٢٣٤- ٢٣٥.

(٤) «محاضرات الأدباء»: ١/ ٤٤٥.

(٥) المصدر السابق.

وقال شاعرُ بنى عامر:

إذا لم يكن للفتى همة ... تبوئه فى العلا مصعدا
ونفس يعودها المكرما ... ت، والمرء يلزم ما عُوِّدا
ولم تَعْدُ همته نفسه ... فليس ينال بها السؤدُدا[(١)]

وقد ذمّ أعرابى رجلاً فقال:

«هو عبد البدن، حُرُّ الثياب، عظيم الرُّواق، صغير الأخلاق، الدهر يرفعه وهمته تضعه»[(٢)].

وقال أبو دُلَف[(٣)]:

وليس فراغ القلب مجدًا ورفعة ... ولكنّ شغلَ القلب للهمِّ رافعُ
وذو المجد محمول على كل آلة ... وكل قصير الهمِّ فى الحى وادعُ[(٤)]

والهمّة قسمان: وهبية، وكسبية:

فالوهبيّة هى ما وهبه الله تعالى للعبد من علو الهمّة أو سفولها، ويمكن أن تنمى وتُرعى أو تهمل وتترك، فإن نماها صاحبها وعلا بها

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق: ١/ ٤٤٧.
(٣) صاحب الكَرْج وأميرها القاسم بن عيسى العجلى، كان فارسًا شجاعًا مهيبًا، سائسًا، شديد الوطأة، جوادًا مُمَدّحًا، مبذرًا، شاعرًا مجودًا، وولى إمرة دمشق للمعتصم، وله أخبار فى الكرم والفروسية، توفى ببغداد سنة ٢٢٥. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٠/ ٥٦٣- ٥٦٤.
(٤) «محاضرات الأدباء»: ١/ ٤٤٧.

صارت كسبية، أي أن صاحب الهمّة كسب درجات عالية لهمته، وزاد من أصل مقدارها الذى وهبه الله تعالى إياه، وإن تركها وأهملها ولم يلتفت إليها خَبَتْ وتضاءلت، والهمّة فى هذا تشترك مع باقى الصفات العقلية والخلقية كالذكاء وقوة الذاكرة وحسن الخلق وغير ذلك مما هو معلوم بَدَهِى.

قال ابن الجوزى[1] رحمه الله تعالى:

«وقد عرفتَ بالدليل أن الهمّة مولودة مع الآدمى، وإنما تقصر بعض الهمم فى بعض الأوقات، فإذا حُثَّت سارت، ومتى رأيت فى نفسك عجزًا فَسَلِ المنعم، أو كسلاً فالجأ إلى الموفِّق، فلن تنال خيرًا إلا بطاعته، ولا يفوتك خيرٌ إلا بمعصيته»[2].

***

(١) الشيخ الإمام العلامة الحافظ المفسر أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد، ابن الجوزى، ينتهى نسبه إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه، ولد سنة تسع أو عشر وخمسمائة ببغداد، وسمع من مشايخ كثيرين، وكان رأسًا فى التذكير بلا مدافع، وصنف مصنفات كثيرة فى بعضها أوهام وأخطاء بسبب عدم التحرير والمراجعة، وله حكم كثيرة وأقوال شهيرة، توفى سنة ٥٩٧ ببغداد. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٣٦٥- ٣٨٤.

(٢) «لفتة الكبد إلى نصيحة الولد»: ٤٥.

مراتب الهمم

الناس متفاوتون فى أمرين:

الأمر الأول: مطالبهم وأهدافهم.

فمن الناس من يطلب المعالى بلسانه وليس له همة فى الوصول إليها، فهذا متمن مغرور.

وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

ومن أعظم المغالبات مغالبة النفس لتصبح ذا همة عالية.

ومن الناس من لا يطلب إلا سفاسف الأمور ودناياها، وهم فريقان:

- فريق ذو همة فى تحصيل تلك الدنايا، فتجده السبَّاق إلى أماكن اللهو ومغانى الغوانى، وهذا إن اهتدى يكن سباقًا إلى المعالى، ذا همة عالية نفيسة:

«الناس معادن: خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إن فقهوا»[1].

(١) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه: كتاب أحاديث الأنبياء: باب قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾.

- وفريق لا همة له، فهو معدود من سقط المتاع، وموته وحياته سواء، لا يُفتقد إذا غاب، ولا يُسأل إذا حضر.

إني رأيت من المكارم حسبكم ... أن تلبسوا خَزَّ الثياب وتشبعوا
فإذا تذوكرت المكارم مرة ... في مجلس أنتم به فتقنعوا[1]

ومن الناس من تسمو مطالبه إلى ما يحبه الله ورسوله ﷺ، وله همة عظيمة في تحصيل مطالبه وأهدافه فهنيئا له.

وبين كل هذه الأقسام مراتب كثيرة متفاوتة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

«لذة كل أحد على حسب قدره وهمته وشرف نفسه، فأشرف الناس نفساً وأعلاهم همة وأرفعهم قدراً من لذتهم في معرفة الله ومحبته، والشوق إلى لقائه، والتودد إليه بما يحبه ويرضاه»[2].

وقال ابن القيم أيضاً:

«ولله الهمم ما أعجب شأنها وأشد تفاوتها! فهمة متعلقة بالعرش، وهمة حائمة حول الأنتان والحش[3]»[4].

(١) «محاضرات الأدباء» ١/ ٤٤٧.
ومعنى تقنعوا: غطوا وجوهكم أي خجلا، وتواروا لأنكم لستم من أهلها.
(٢) «الفوائد»: ١٩٦- ١٩٧.
(٣) بيت الخلاء.
(٤) «مدارج السالكين»: ٣/ ١٤٧.

يتفاوت الناس فى همـمهم فتتفاوت عـلى هذا أعمالهم وحظوظهم ودرجاتهم، وإذا أردت أن تعرف مراتب الهمم فانظر إلى همة ربيعة بن كعب الأسلمى[١] رضى الله عنه وقد قال له رسول الله ﷺ:

«سل».

فقال: «أسألك مرافقتك فى الجنة»[٢].

وكان بعض الناس يسأله ما يملأ بطنه أو يوارى جلده.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ألا تسألنى من هذه الغنائم التى يسألنى أصحابك؟».

قلت: أسألك أن تعلمنى مما علمك الله.

فنزع نمرة كانت على ظهرى فبسطها بينى وبينه حتى كأنى أنظر إلى النمل يدب عليه فحدثنى، حتى إذا استوعبت حديثه قال:

«اجمعها فصُرها إليك»، فأصبحت لا أسقط حرفًا مما حدثنى[٣].

---

(١) ربيعة بن كعب بن مالـك الأسلمى، أبو فراس المدنى، من أهل الصُفة، توفى سنة ٦٣ بعد موقعة الحرة، رضى الله عنه.
انظر «التقريب»: ٢٠٨.

(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه: كتاب الصلاة: باب فضل السجود والحث عليه.

(٣) أخرجه أبو نعيم فى «الحلية»: ١/ ٣٨١.
والحديث مروى بنحـو هذا اللفظ فى صحيح البخـارى ومسلم ومسند أحمـد وغيرهم رحمهم الله تعالى.

فاكتسب رضى الله عنه بهمته فى الطلب مجدًا عظيمًا، وهو أنه حفظ للناس أحاديث رسولهم ﷺ، فأصبح حافظ الصحابة بلا منازع، بل أصبح راوية الإسلام.

وقال الشيخ عبد القادر الجيلانى[1] لغلامه:

«يا غلام: لا يكن همك ما تأكل وما تشرب، وما تلبس وما تنكح، وما تسكن وما تجمع، كل هذا هم النفس والطبع فأين هم القلب، همك ما أهمك فليكن همك ربك عز وجل وما عنده»[2].

وهذه -والله- من أعظم الوصايا للدعاة حتى لا تضعف همتهم أمام المغريات؛ لاسيما وأن من أهم صفات الداعية مخالطته الناس والتأثير عليهم، فكم من داعية انزلق فى بحر هذه المغريات حتى أضحت الدعوة آخر اهتماماته.

ليس المروءة أن تبيت مُنعمًا ... وتظل معتكفًا على الأقداح

ما للرجال والتنعم إنما ... خلقوا ليوم كريهة وكفاح[3]

(١) الشيخ الإمام، العالم، الزاهد العارف القدوة، شيخ الإسلام، علم الأولياء محيى الدين، أبو محمد، عبد القادر بن أبى صالح عبد الله بن جنكى دوست الجيلى الحنبلى، شيخ بغداد، ولد بـ«جيلان» سنة ٤٧١، له الكرامات العجيبة والمواعظ المؤثرة، وقد تاب على يديه خلق كثير، عاش تسعين سنة، وتوفى سنة ٥٦١ ببغداد رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٤٣٩- ٤٥١.

(٢) إحياء فقه الدعوة، الراشد، مجلة المجتمع: ١٣٦.

(٣) «محاضرات الأدباء»: ١/ ٤٨٨.

وأما أمر ابن عباس رضى الله عنه مع صاحبه الأنصارى فهو دليل على تفاوت الهمم واختلاف مراتبها فقد قال رضى الله عنه:

«لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل: هلم فلنتعلم من أصحاب النبى ﷺ فإنهم كثير.

فقال: العجب -والله- لك يا ابن عباس، أترى الناس يحتاجون إليك وفى الناس من ترى من أصحاب رسول الله ﷺ؟!

فركبت ذلك وأقبلت على المسألة وتتبع أصحاب رسول الله ﷺ. فإن كنت لآتى الرجل فى الحديث يبلغنى أنه سمعه من رسول الله ﷺ فأجده قائلا، فأتوسد ردائى على باب داره تسفى الرياح على وجهى حتى يخرج إلىّ، فإذا رآنى قال: يا ابن عم رسول الله ﷺ ما لك؟

قلت: حديث بلغنى أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ فأحببت أن أسمعه منك.

فيقول: هلا أرسلت إلىّ فآتيك؟

فأقول: أنا كنت أحق أن آتيك.

وكان ذلك الرجل يرانى، فذهب أصحاب رسول الله ﷺ وقد احتاج الناس إلىَّ، فيقول: أنت أعلم منى»[(١)].

---

(١) قال فى «مجمع الزوائد» ٩/ ٢٨٠: رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح.

وترى اليوم من تفاوت الهمم أمرًا عجبًا، فإذا استثنى الناظر فى أحوال الناس أمر العامة -واستثناؤهم واجب لأنه قد ماتت هممهم، وقعدت بهم عن تحصيل معالى الأمور- واطلع على أحوال الخاصة وهم: الدعاة، وطلاب العلم، وباقى الملتزمين الحريصين على دينهم، سيصاب بالدهشة لما يراه من فتور الهمة، وأنها الشأن الغالب على الخصوص الذين ذكرتهم:

فمنهم من إذا اطلع ساعة أو ساعتين فى اليوم ظن أنه قد أتى بما لم يأت به الأوائل، ومنهم من إذا خرج لزيارة فلان من الناس بقصد الدعوة يظن أنه قد قضى ما عليه من حق يومى، ومنهم من تتغلب عليه زوجة وعيال فيقطع عامة وقته فى مرضاتهم، ومنهم من اقتصر فى تحصيل العلم على سماع بعض الأشرطة وحضور محاضرة أو اثنتين فى الأسبوع أو الشهر، ومنهم من غلب عليه الركون إلى الدنيا والتمتع بمباحاتها تمتعًا يُفضى به إلى نسيان المعانى العلية، ومنهم من يقضى عامة يومه متتبعًا لسقطات إخوانه، ومطلعًا على ما يزيد علمه رسوخًا فى هذا المجال.

وهكذا يندر أن تجد إنسانًا استطاع أن يعلو بهمته، ويجمع شمله ويقصر من الاعتذارات والشكايات فتصبح حياته مثلا أعلى يُحتذى به.

ولا أزعم أن جمهور الصحوة قد فات عليه هذا الأمر -أى أمر الهمة وعلوها- ولكن أقول جازمًا بأنه -إلا القليل- لم يستثمروا هممهم حق الاستثمار، ولم يحاولوا أن يرتقوا بأنفسهم حق الارتقاء.

يقول الأستاذ المودوى رحمه الله تعالى مخاطبًا قومًا ممن ذكرناهم آنفًا:

«إنه من الواجب أن تكون فى قلوبكم نار متقدة تكون فى ضرامها - على الأقل- مثل النار التى تتقد فى قلب أحدكم عندما يجد ابنًا مريضًا ولا تدعه حتى تجره إلى الطبيب، أو عندما لا يجد فى بيته شيئًا يسد به رمق حياة أولاده فتقلقه وتضطره إلى بذل الجهد والسعى.

إنه من الواجب أن تكون فى صدوركم عاطفة صادقة تشغلكم فى كل حين من أحيانكم بالسعى فى سبيل غايتكم، وتعمر قلوبكم بالطمأنينة، وتكسب لعقولكم الإخلاص والتجرد، وتستقطب عليها جهودكم وأفكاركم بحيث إن شؤونكم الشخصية وقضاياكم العائلية إذا استرعت اهتمامكم فلا تلتفتون إليها إلا مكرهين.

وعليكم بالسعى ألا تنفقوا لمصالحكم وشؤونكم الشخصية إلا أقل ما يمكن من أوقاتكم وجهودكم، فتكون معظمها منصرفة لما اتخذتم لأنفسكم من الغاية فى الحياة.

وهذه العاطفة ما لم تكن راسخة فى أذهانكم، ملتحمة مع أرواحكم ودمائكم، آخذة عليكم ألبابكم وأفكاركم، فإنكم لا تقدرون أن تحركوا ساكنًا بمجرد أقوالكم.

الحقيقة أن الإنسان إذا كان قلبه مربوطًا بغايته، وفكره متطلعًا إليها، فإنه لا يحتاج إلى تحريض أو دفع. . .

واسمحوا لى أن أقول لكم: إنكم إذا خطوتم على طريق هذه الدعوة بعاطفة أبرد من تلك العاطفة القلبية التى تجدونها فى قلوبكم نحو أزواجكم وأبنائكم وأمهاتكم فإنكم لابد أن تبوؤوا بالفشل الذريع»[١].

أرأيتم همة الإمام رحمه الله، ولا غرو أن تخرج هذه اللآلئ من رجل تصدى طيلة حياته المباركة لهموم دعوة الخلق إلى الحق، حتى أنه كان يصدر دورية بنفسه لا يشاركه فيها أحد -وكان هذا فى مقتبل حياته- فهو الناشر ومدير التحرير والموزع، وقد أخبر عن نفسه بأنه كان يبل الخبز اليابس فى النهر ثم يأكله، وحياته تصلح أن تكون تطبيقًا لما أوردته عنه آنفًا، رحمه الله.

ويمكن بعد هذا أن نقول: إن مراتب الهمم متفاوتة فيما يلى:

١- همة لا تسعف صاحبها لقضاء حوائجه الأساسية بل يظل عامة ليله وسحابة نهاره فى نوم وتراخ وكسل، وهذه أدنى درجات الهمم -والعياذ بالله- وصاحبها عاجز قاصر يعتمد على الناس اعتمادًا كليًا، وهذه المرتبة قليلة فى النوع الإنسانى، ولله الحمد.

ومن أمثلتها فى الناس الطفيليون، وطبقة التنابلة المشتهرين فى التاريخ بكسلهم وسقوط هممهم.

٢- ومن الهمم همة ترقى بصاحبها إلى قضاء الحوائج والسعى فى الأرض وأداء الفروض، ولكن كل هذا يقضيه بقدر بحيث يستصعب

---

(١) «تذكرة دعاة الإسلام»: ٥٨.

معه كثيرًا من الأمور، ويعتقد استحالتها وهى أمور ممكنة التحقق عند غيره، وتجده -عند الاستشارة- كثير الصد قريب القصد.

وهذه المرتبة من الهمة يشترك فيها كثير من الناس إن لم نقل أغلبهم.

٣- ومن الناس من يريد الارتفاع بهمته ولكنه لا يعرف سبل استثمارها ولا كيفية الاستفادة التامة منها، فتجده متذبذبا فى أموره، فتارة ينجز أمورًا عظيمة، وتارة يستصعب الممكن ويستبعده.

والغالب على أهل هذه المرتبة أنهم لا يحققون ما يصبون له ويتطلعون إليه.

٤- ومن الناس من تتجاوز به همته واقع الناس بكثير وتتعداه، بل تكاد تستسهل المستحيل ولا تخضع له، وصاحب هذه الهمة نادر فى دنيا البشر، ولكنه موجود معروف، يعرفه الناس ويقتدون به، والغالب على صاحب هذه الهمة أنه يحقق أهدافه وغايته، بل يحقق أمورًا تحتاج فى تصور معظم الناس إلى فريق من العاملين لإنجازها.

قال أبو الطيب المتنبى[١] رحمه الله تعالى:

له همم لا منتهى لكبارها   وهمته الصغرى أجل من الدهر

(١) شاعر الزمان، أبو الطيب، أحمد بن حسين بن حسن الجُعفى الكوفى الأديب، الشهير بـ«المتنبى»، ولد سنة ٣٠٣، وأقام بالبادية يقتبس اللغة والأخبار، وكان من أذكياء عصره، بلغ الذروة فى النظم، تنبأ فافتضح وحبس دهرًا ثم تاب، قتل سنة ٣٥٤ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٦/ ١٩٩- ٢٠١.

وقال أيضًا:

على قدر أهل العزم تأتى العزائم ... وتأتى على قدر الكرام المكارم

وتعظم فى عين الصغير صغارها ... وتصغر فى عين العظيم العظائم

وقال أيضًا:

تجــمــعت فى فــؤاده همم ... ملءُ فــؤاد الزمـان إحــداها

وقال آخر:

صدرٌ رحيبٌ لما يأتى الزمان به ... وهمــة تسع الدنيـا ومـا تسعُ

وقال أبو فراس[1]:

تهون علينا فى المعالى نفوسُنا ... ومن يخطب الحسناء لم يُغْله المهرُ[2]

***

(١) الأمير، الحارث بن حمدان التغلبى الشاعر المُفلق، كان رأسًا فى الفروسية والجود وبراعة الأدب، أسرته الروم جريحًا فبقى فى القسطنطينية أعوامًا، ثم فداه سيف الدولة، وكـانت له منبج، بلدة بجـوار حلب، ثم تملك حـمص، ثم قـتل سنة ٣٥٧ عن ٣٧ سنة، انظر المصدر السابق: ١٦/ ١٩٦- ١٩٧.

(٢) النصوص الشعرية السابقة من «محاضرات الأدباء»: ١/ ٤٤٥- ٤٤٧.

أهمية علو الهمّة فى حياة المسلم

يقول ممشاد الدينورى[١]:

«همتك فاحفظها؛ فإن الهمّة مقدمة الأشياء، فمن صلحت له همته وصدق فيها صلح له ما وراء ذلك من الأعمال»[٢].

ويقول ابن القيم رحمه الله:

«لابد للسالك من همة تسيِّره وترقيه، وعلم يبصِّره ويهديه»[٣].

وقال الشيخ أحمد بن إبراهيم الدرعى[٤]:

«كن رجلاً رجله فى الثرى وهمه فى الثريا، وما افترقت الناس إلا فى الهمم، من علت همته علت رتبته، ولا يكون أحدٌ إلا فيما رضيت له همته»[٥].

---

(١) وردت ترجمة له فى «حلية الأولياء»: ١٠/٣٥٣ - ٣٥٤ اقتصر فيها على ذكر أقواله وحكمه.

(٢) «إحياء فقه الدعوة» للأستاذ الراشد، مجلة المجتمع: ١٣٦.

(٣) «الدرر الكامنة»: ٤/٢١.

(٤) الزاهد العابد، ولد عام ١٠٠١، وتوفى عام ١٠٥٢، له حكم ومواعظ: انظر «نشر المثانى»: ٢/٢٢.

(٥) المصدر السابق.

وقد أسلفتُ بأنها عمود أمر الإنسان والأمر المهم فى دنياه، ولكن سأفصّل ما أجملت بما يلى:

أولاً: تحقيق كثير من الأمور مما يعده عامة الناس خيالاً لا يتحقق:

وهذا الأمر مشاهد معروف عند أهل الهمم؛ إذ يستطيعون -بتوفيق الله لهم أولاً، وبهمتهم ثانيًا- إنجاز كثير من الأعمال التى يستعظم بعضها من قعدت به همته ويظنها خيالاً.

وأعظم مثال على هذا سيرة المصطفى ﷺ وآله وصحبه وسلم؛ إذ المعروف عند أهل التواريخ أن بناء الأمم يحتاج إلى أجيال لتحقيقه، لكنه ﷺ استطاع بناء خير أمة أُخرجت للناس فى أقل من ربع قرن، واستطاعت هذه الأمة أن تنير بالإسلام غالب الأجزاء المعروفة آنذاك، وجهاده ﷺ وعمله وهمته العالية فى بناء الأمة أمرٌ معروف، وهو مما تقاصر عنه أطماع أهل الهمّة العالية وخيالاتها وما يتطلعون إليه.

والصدِّيق رضى الله عنه استطاع -فى أقل من سنتين- أن يخرج من دائرة حصار المرتدين، ولم يمت إلا وجيوشه تحاصر أعظم إمبراطوريتين فى ذلك الوقت، هذا وقد نهاه كبار الصحابة عن حرب المرتدين وظنوا أنه لا يستطيع أن يقوم فى وجه العرب كلهم، ولكن همته العالية أبَتْ عليه ذلك واستطاع أن ينجز ما ظنه الناس خيالاً لا ينجز.

وقس على هذا أمر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى أنه من عظمة همته فى طلب الحق قال له على رضى الله عنه:

«لقد أذللت الخلفاء من بعدك يا أمير المؤمنين»(١).

ويصلح أن يكون أمر الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز مثالاً يستضاء به لطالب الهمّة العالية؛ إذ إنه حاول إرجاع الناس إلى ما كان عليه الصدر الأول، ولقد حقق كثيرًا من النجاح، رحمه الله.

وهناك أمثلة كثيرة مبثوثة فى التواريخ، ولكن لنقترب قليلاً من عصرنا، ونحلِّق قريبًا من ديارنا، ولنضرب مثلين على علو الهمّة لا أكاد أجد لهما -فيما أعلم- نظيرًا:

أما أحدهما فشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله استطاع فى مدة وجيزة إخراج مجتمعه من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد بهمة وعزيمة نادرتين.

وأما الآخر فالإمام حسن البنا رحمه الله؛ إذ كانت حياته مثلاً جميلاً لعلو الهمّة، ومن أراد الإنصاف فليراجع «مذكرات الدعوة والداعية»، و«رسائله» التى تفوح بعلو الهمّة وقوة الإرادة، وكيف لا يكون كذلك وقد كان يخاطب أتباعه بقوله: «أحلام الأمس حقائق اليوم، وأحلام اليوم حقائق الغد».

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب، ابن الجوزى.

وأضرب -فى الختام- مثلاً بهمة أحد الكافرين حتى نعتبر ونتعظ، فنحن أولى منه بعلو الهمّة وقوة الإرادة، وهذه القصة حكاها الدكتور توفيق الواعى حيث قال حفظه الله:

«أرسلت الدولة اليابانية فى بدء حضارتها بعوثًا دراسية إلى ألمانيا كما بعثت الأمة العربية بعوثًا، ورجعت بعوث اليابان لتحضر أمتها، ورجعت بعوثنا خاوية الوفاض!! فما هو السر؟ لنقرأ هذه القصة حتى نتعرف على الإجابة.

يقول الطالب اليابانى «أوساهير» الذى بعثته حكومته للدراسة فى ألمانيا:

لو أننى اتبعت نصائح أستاذى الألمانى الذى ذهبت لأدرس عليه فى جامعة هامبورج لما وصلت إلى شىء، كانت حكومتى قد أرسلتنى لأدرس أصول الميكانيكا العلمية، كنت أحلم بأن أتعلم كيف أصنع محركًا صغيرًا، كنت أعرف أن لكل صناعة وحدة أساسية أو ما يسمى «موديل» هو أساس الصناعة كلها، فإذا عرفت كيف تصنع وضعت يدك على سر هذه الصناعة كلها، وبدلاً من أن يأخذنى الأساتذة إلى معمل، أو مركز تدريب علمىّ، أخذوا يعطوننى كتبًا لأقرأها، وقرأت حتى عرفت نظريات الميكانيكا كلها، ولكننى ظللت أمام المحرك -أيًا كانت قوته- وكأننى أقف أمام لغز لا يحل.

وفى ذات يوم قرأت عن معرض محركات إيطالية الصنع، كان ذلك أول الشهر، وكان معى راتبى، وجدت فى المعرض محركًا قوة حصانين ثمنه يعادل مرتبى كله، فأخرجت الراتب ودفعته، وحملت المحرك وكان ثقيلاً جدًا، وذهبت إلىٰ حجرتى، ووضعته على المنضدة وجعلت أنظر إليه، وكأنى انظر إلى تاج من الجوهر، وقلت لنفسى: هذا هو سر قوة أوروبا، لو استطعت أن أصنع محركًا كهذا لغيرت تاريخ اليابان، وطاف بذهنى خاطر يقول: إن هذا المحرك يتألف من قطع ذات أشكال وطبائع شتى، مغناطيس كحدوة الحصان، وأسلاك، وأذرع دافعة، وعجلات، وتروس وما إلى ذلك، لو أننى استطعت أن أفكك قطع هذا المحرك وأعيد تركيبها بالطريقة نفسها التى ركبوها بها ثم شغلته فاشتغل أكون قد خطوت خطوة نحو سر «موديل» الصناعة الأوروبية.

وبحثت فى رفوف الكتب التى عندى، حتى عثرت على الرسوم الخاصة بالمحركات، وأخذت ورقًا كثيرًا، وأتيت بصندوق أدوات العمل، ومضيت أعمل، رسمت المحرك، بعد أن رفعت الغطاء الذى حمل أجزاءه، ثم جعلت أفككه، قطعة قطعة، وكلما فككت قطعة رسمتها على الورقة بغاية الدقة وأعطيتها رقمًا، وشيئًا فشيئًا فككته كله، ثم أعدت تركيبه، وشغلته فاشتغل، كاد قلبى يقف من الفرح، استغرقت العملية ثلاثة أيام، كنت آكل فى اليوم وجبة واحدة، ولا أصيب من النوم إلا ما يمكننى من مواصلة العمل.

وحملت النبأ إلى رئيس بعثتنا فقال: حسنًا ما فعلت، الآن لابد أن أختبرك، سآتيك بمحرك متعطل، عليك أن تفككه، وتكتشف موضع الخطأ وتصححه، وتجعل هذا المحرك العاطل يعمل، وكلفتنى هذه العملية عشرة أيام عرفت أثناءها مواضع الخلل، فقد كانت ثلاث من قطع المحرك بالية متآكلة، صنعت غيرها بيدى، صنعتها بالمطرقة والمبرد.

بعد ذلك قال رئيس البعثة -وكان بمثابة الكاهن يتولى قيادتى روحيًا-[١]: عليك الآن أن تصنع القطع بنفسك، ثم تركبها لتصنع محركًا، ولكى أستطيع أن أفعل ذلك التحقت بمصانع صهر الحديد، وصهر النحاس، والألومنيوم، بدلاً من أن أعد رسالة الدكتوراة كما أراد منى أساتذتى الألمان، تحولت إلى عامل ألبس بذلة زرقاء وأقف صاغرًا إلى جانب عامل صهر المعادن، كنت أطيع أوامره كأنه سيد عظيم، حتى كنت أخدمه وقت الأكل، مع أننى من أسرة ساموراى، ولكننى كنت أخدم اليابان وفى سبيل اليابان يهون كل شىء، قضيت فى هذه الدراسات والتدريبات ثمانى سنوات، كنت أعمل خلالها ما بين عشرة وخمس عشرة ساعة فى اليوم، وبعد انتهاء يوم العمل كنت آخذ نوبة حراسة، وخلال الليل كنت أراجع قواعد كل صناعة على الطبيعة.

وعلم «الميكادو» -الحاكم اليابانى- بأمرى فأرسل لى من ماله الخاص خمسة آلاف جنيه إنجليزى ذهبًا اشتريت بها أدوات مصنع محركات

(١) ليتنا نحذو حذوهم فلا نرسل بعثة إلا بمرافق يعلمها أمور دينها.

كاملة، وأدوات وآلات، وعندما أردت شحنهـا إلى اليابان كانت النقود قد فرغت، فوضعت راتبى وكل ما ادخرته.

وعندما وصلت إلى «نجازاكى» قيل لى: إن «الميكادو» يريد أن يرانى، قلت: لن أستحق مقابلته إلا بعد أن أنشئ مصنع محركات كاملاً، استغرق ذلك ٩ سنوات، وفى يوم من الأيام حملت مع مساعدى عشرة محركات (صنع فى اليابان)، قطعة قطعة، حملناها إلى القصر، ودخل «الميكادو» وانحنينا نحييه وابتسم وقال: هذه أعذب موسيقى سمعتها فى حياتى، صوت محركات يابانية خالصة، هكذا ملكنا «الموديل» وهو سر قوة الغرب، نقلناه إلى اليابان، نقلنا قوة أوروبا إلى اليابان ونقلنا اليابان إلى الغرب»(١).

ثانيًا: الوصول إلى مراتب عليا فى العبادة والزهد:

وهذا مَعْلَم بارز فى حياة النبى ﷺ والصحابة ومن تبعهم بإحسان، يقول حذيفة رضى الله عنه:

«صليت مع النبى ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى فقلت: يصلى بها فى ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ،

(١) مجلة المجتمع، العدد ٩٩٨.

ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربى العظيم، فكان ركوعه نحواً من قيامه ثم قال: سمع الله لمن حـمده، ثم قام طويلاً قريبًـا مما ركع، ثم سجد فقال: سبحان ربى الأعلى، فكان سجوده قريبًا من قيامه»[1].

وقال ابن مسعود رضى الله عنه:

«صليت مع رسول الله ﷺ فـأطال حتى هممت بأمر سـوء، قيل: وما هممت به؟ قال: هممت أن أجلس وأدعه»[2].

وهذا معاذ بن جبل رضى الله عنه على فراش الموت يذكر أمورًا تدل على علو همّته فى العبادة والزهد، فروى عنه أنه قال:

«اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب البقـاء فى الدنيا ولا طول المكث فيـها لجـرى الأنهار، ولا لغـرس الأشجـار، ولكن كنت أحب البـقاء لمكابدة الليل الطويل، وظمأ الهواجر فى الحر الشديد، ولمزاحمة العلماء بالركب فى حلَق الذكر»[3].

هذا وقد كـان يعيش فى دمـشق ولكنه علا بـهمتـه عمـا فيـها من مغريات وجمال.

(١) أخرجه الإمـام مسلم رحمه الله فى كتـاب صلاة المسافرين وقصـرها، باب صلاة النبى ﷺ ودعاؤه بالليل.

(٢) المصدر السابق.

(٣) «حلية الأولياء» ١/ ٢٣٩.

وهذا الإمام مالك بن أنس رحمـه الله إمام دار الهجرة قد روى عنه الإمام ابن القاسم[1] هذه الحادثة:

«كنت آتى مالكا غلسًا[2] فأسـأله عن مسألـتين، ثلاثة، أربعة، وكنت أجد منه انشـراح الصدر، فكنت آتى كلّ سـحر، فتـوسدت مرة فى عتبته، فغلبـتنى عينى فنمت، وخرج مالك إلى المسجد فلم أشعـر به، فركـضتنى سـوداء له برجلها وقـالت لى: إن مولاك لا يغفل كمـا تغفل أنت، اليوم له تسع وأربعون سنة مـا صلى الصبح إلا بوضوء العَـتَمَة[3]، ظنت السوداء أنه مـولاه من كثرة اختـلافه إليه»[4].

وإذا أردت التـوسع فى أمثلة عـبادة الـسلف وزهدهم فسـيطول بى الأمر، وحسبى ما أردته دليلاً على علو هممهم.

---

(١) عالم الديار المصـرية ومفتـيها، أبو عـبد الله عبـد الرحمن بن القاسم العُـتَقىَ بالولاء، المصرىّ، صاحب الإمام مالك. كان ذا مال ودنيا فأنفقها فى العلم، وله قدم فى الورع والتأله، ولد سنة ١٣٢ وتوفى سنة ١٩١ رحمه الله تعـالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٩/ ١٢٠ - ١٢٥.

(٢) انظر إلى هذه الهمة العالية إذ يأتيه قبل الفـجر، وفى أيامنا قلّ من يجلس مستيقظًا بعد صلاة الفجـر إلى أن يصلى ركعتين بعد ارتفاع الشـمس قدر رمح، وإذا طلب من أحد الدرس بعد الفـجر يعتذر بأنه مـوعد غير مناسب، وهذا حـتى فى أيام الإجازات التى ليس فيها عمل صباحى مبكر يحتاج إلى راحة.

(٣) أى العشاء.

(٤) «ترتيب المدارك»: ٣/ ٢٥٠.

ثالثًا: البعد عن سفاسف الأمور ودناياها:

صاحب الهمّة العالية لا يرضى لنفسه دنايا الأمور بل يطمح دائمًا إلى ما هو أفضل وأحسن، فتجده يترفع عن مجالس اللغو وإضاعة الوقت، وينأى بنفسه عنها.

يقول الإمام ابن الجوزى متألمًا من حال من يقطع يومه وليلته فى سفاسف الأمور:

«قد رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعًا عجيبًا، إن طال الليل فبحديث لا ينفع أو بقراءة كتاب فيه غزل وسمر، وإن طال النهار فبالنوم، وهم فى أطراف النهار على دجلة أو فى الأسواق، فشبهتهم بالمتحدثين فى سفينة وهى تجرى وما عندهم خبر، ورأيت النادرين قد فهموا معنى الزمان وتهيأوا للرحيل، فالله الله فى مواسم العمر، والبدارَ قبل الفوات ونافسوا الزمان»(١).

ولما فرّ عبد الرحمن الداخل(٢) -صقر قريش- من العباسيين وتوجه تلقاء الأندلس أهديت إليه جارية جميلة فنظر إليها وقال:

---

(١) «قيمة الزمن عند العلماء»: ٢٧ - ٢٨.

(٢) عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، أمير الأندلس وسلطانها، أبو المطرِّف الأموى المروانىّ -المشهور بـ«الداخل»- ولما سقطت دولة بنى أمية هرب ودخل الأندلس فتملكها ٣٣ سنة، وبقى الملك فى عقبه إلى سنة ٤٠٠، ولد سنة ١١٣ بالشام، وتوفى سنة ١٧٢ بالأندلس رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٨/ ٢٤٤ - ٢٥٣.

«إن هذه من القلب والعين بمكان، وإن أنا اشتغلت عنها بهمتى فيما أطلبه ظلمتهـا، وإن اشتغلت بها عما أطلبـه ظلمت همتى، ولا حاجة لى بها الآن، وردّها على صاحبها»[1].

ويروى الأستاذ عبد الستار نوير قصة طريفة فيها عبرة فيقول:

«قرأت للأستاذ أحمد أمين طريفة معبرة، قال:

حُدثت أن جنديًا ظريفًا رأى فى مقـهى رجلين يلعبان النرد، وكانت الساعة السـابعة مساءً، فـتقدم إليهـما بكل أدب واحترام وحـيّاهما ثُم سألهما:

* من أى وقت بدأتما اللعب؟

- من الساعة الرابعة.

* وإلى متى؟

- إلى الثامنة أو التاسعة.

* وما عملكما؟

- مدرسان.

فانهال عليهما ضربًا ولكمًا وقال: أما لكما عمل تعملانه، أو رياضة تقومان بها، أو خدمة اجتماعية تؤديانها؟».

(١) «نفح الطيب»: ٤/ ٤٣.

ذكر الأستاذ القصة ثم قال معلقًا:

«ليت لنا مشرفين من هذا القبيل يعزرون من أضاع وقته على هذا النمط، إذًا ما نجا من الضرب واللكم إلا القليل»[1].

إن الإسلام -وهو الدين الشامل الخاتم- قد أبيح فيه الترويح والتنفيس، ولكن أن يُخطأ فى تقدير هذا الترويح فيُجعل هو الأصل، فهذا من الدنايا التى تُنزه عنها الأديان وترتفع عنها همة الإنسان.

رابعًا: صاحب الهمّة العالية يُعتمد عليه، وتناط به الأمور الصعبة وتوكل إليه:

وهذا أمر مشاهد معروف؛ فإن كل رؤساء ومدراء الجمعيات والمؤسسات يطمحون للعمل مع صاحب الهمّة العالية ويطمئنون له ويسعدون به، كيف لا وهو عوض عن فريق من العاملين، وكذلك صاحب الهمّة العالية فى الدعوة يكون بمثابة فريق من الدعاة، ويرفع الله به الدعوة درجات.

وقد قيل:

«ذو الهمّة وإن حط نفسَه تأبى إلا العلوّ، كالشعلة من النار يخفيها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعًا»[2].

---

(١) «الوقت هو الحياة» ١٧٨.

(٢) «محاضرات الأدباء» ١/ ٤٤٥.

خامسًا: صاحب الهمّة العالية يستفيد من حياته أعظم استفادة، وتكون أوقاته مستثمرة بنّاءة:

وهذا هو مطمع الصالحين ومراد العالمين ومجال المتنافسين، وقد كان السلف رحمهم الله يضربون أعظم الأمثلة فى هذا المجال، وحسبى فى هذا الأمر أن أورد مثالين:

أ- كان الإمام ابن عقيل الحنبلى(١) يقول:

«إنى لا يحل لى أن أضيع ساعة من عمرى، حتى إذا تعطل لسانى عن مذاكرة ومناظرة، وبصرى عن مطالعة، أعملت فكرى فى حال راحتى وأنا مستطرح»(٢).

ب- ووصف الإمام النووى(٣) حياته لتلميذه أبى الحسن ابن العطار(٤) فذكر له أنه كان يقرأ كل يوم اثنى عشر درسًا على مشايخه

---

(١) الإمام العلامة البحر، شيخ الحنابلة، أبو الوفاء على بن عقيل بن محمد البغدادى الحنبلى المتكلم، صاحب التصانيف. ولد سنة ٤٣١، وخالط المعتزلة فانحرف عن السنة، وكان يتوقد ذكاء، بحرُ معارف، وكان كريمًا، توفى سنة ٥٠٣ وكان الناس فى جنازته يفوقون الحصر. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٩/ ٤٤٣ - ٤٥١.

(٢) «الوقت هو الحياة»: ١٧٨.

(٣) يحيى بن شرف بن مُرِّى، الإمام المشهور، توفى سنة ٦٧٦ عن ٤٥ سنة. انظر ترجمته فى «فوات الوفيات»: ٤/ ٢٦٤ - ٢٦٨.

(٤) على بن إبراهيم بن داود، أبو الحسن، من أهل دمشق، ولد سنة ٦٥٤، وكان أبوه عطارًا، وجده طبيبًا، ألف مؤلفات عديدة، وباشر مشيخة المدرسة النورية ٣٠ سنة، توفى سنة ٧٢٤ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٤/ ٢٥١.

شرحًا وتصحيحًا: درسين في «الوسيط» ودرسًا في «المهذب»[1]، ودرسًا في صحيح مسلم، ودرسًا في «اللمع»[2] لابن جنّي[3]، ودرسًا في إصلاح المنطق، ودرسًا في التصريف، ودرسًا في أصول الفقه، ودرسًا في أسماء الرجال، ودرسًا في أصول الدين، قال: وكنت أعلق جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل ووضوح عبارة، وضبط لغة، وبارك الله تعالى في وقتي»[4].

وقال أبو الحسن العطّار:

«ذكر لي شيخنا رحمه الله تعالى أنه كان لا يُضيع له وقتًا لا في ليل ولا في نهار إلا في اشتغال حتى في الطرق، وأنه دام على هذا ست سنين، ثم أخذ في التصنيف والإفادة والنصيحة وقول الحق.

قلت[5]: مع ما هو عليه من المجاهدة بنفسه، والعمل بدقائق الورع، والمراقبة، وتصفية النفس من الشوائب ومحقها من أغراضها»[6].

---

(١) كتاب في الفقه الشافعي لأبي إسحاق الشيرازي، شرحه الإمام النووي في كتابه «المجموع».

(٢) كتاب في النحو.

(٣) إمام العربية، أبو الفتح عثمان بن جنيّ الموصليّ، صاحب التصانيف، له نظم جيد، توفي سنة ٣٩٢ عن قاربة ٦٣ سنة رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٧/١٧ - ١٩.

(٤) «تذكرة الحفاظ»: ٤/ ١٤٧.

(٥) أي الذهبي.

(٦) «تذكرة الحفاظ»: ٤/ ١٤٧.

وإليك -أخى القارئ- كلامًا مهمًا لأحد الغربيين يوضح حال أهل الهمّة مع وقته:

قال د. ماردن:

«كل رجل ناجح لديه نوع من الشِّباك يلتقط به نحاتات وقراضات الزمان، ونعنى بها فَضَلات الأيام والأجزاء الصغيرة من الساعات مما يكنِسه معظم الناس بين مهملات الحياة، وإن الرجل الذى يدخر كل الدقائق المفردة، وأنصاف الساعات، والأعياد غير المنتظرة، والفسحات التى بين وقت وآخر، والفترات التى تنقضى فى انتظار أشخاص يتأخرون عن مواعيد مضروبة لهم، ويستعمل كلَّ هذه الأوقات، ويستفيد منها ليأتى بنتائج باهرة يدهش لها الذين لم يفطنوا لهذا السر العظيم الشأن»[١].

سادسًا: صاحب الهمّة العالية قدوة للناس:

صاحب الهمّة قدوة فى مجتمعه، ينظر إلى حاله القاعدون وأنصاف الكسالى والفاترون فيقتدون بهمته، ويرون ما كانوا يظنونه أمرًا مسطورًا فى الكتب القديمة قد انتهى وعُدِم من دنيا الناس، يرونه واقعًا متحققًا فى حياتهم، فيظل هذا الشخص رمزًا للناس ومحل ضرب أمثالهم.

(١) «سبيلك إلى الشهرة والنجاح»: ٥٦.

سابعًا: تغيير طريقة حياة الأفراد والشعوب:

يقول الشيخ الأستاذ محمد الخضر حسين[1] شارحًا المراد:

«يسمو هذا الخلق بصاحبه فيتوجه به إلى النهايات من معالى الأمور؛ فهو الذى ينهض بالضعيف يُضطهد أو يزدرى فإذا هو عزيز كريم، وهو الذى يرفع القوم من سقوط ويبدلهم بالخمول نباهة وبالاضطهاد حرية، وبالطاعة العمياء شجاعة أدبية.

هذا الخلق هو الذى يحمى الجماعة من أن تتملق خصمها... أما صغير الهمّة فإنه يبصر بخصومه فى قوة وسطوة فيذوب أمامهم رهبة، ويطرق إليهم رأسه حِطَّة ثم لا يلبث أن يسير فى ريحهم، ويسابق إلى حيث تنحط أهواؤهم»[2].

***

(١) محمد الخضر بن الحسين بن على الحسنىّ التونسىّ، ولد سنة ١٢٩٣، عالم إسلامى وباحث، من أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة ودمشق، وتولى مشيخة الأزهر، وكان هادئ الطبع، وقورًا، خص قسمًا كبيرًا من وقته لمقاومة الاستعمار، توفى سنة ١٣٧٧ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٦/ ١١٣ - ١١٤.

(٢) «رسائل الإصلاح»: ٢/ ٨٨.

وسائل ترقية الهمّة

إذا عرفنا معنى الهمّة، ومراتبها، وأهميتها، فكيف السبيل لتنميتها والرقى بها؟

إن تطوير الإنسان لهمته والرقى بها أمر مطلوب، ويتأكد هذا المطلوب عند عقلاء الناس ومفكريهم ودعاتهم ومصلحيهم، وهذه جملة أمور تساعد -فى ظنى- على تطوير الهمم:

١ - المجاهدة:

فبدونها لا يتحقق شيء ولا تُخطى خطى، قال تعالى:

﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

«أعرف من أصابه مرض من صداع وحمى وكان الكتاب عند رأسه، فإذا وجد إفاقة قرأ فيه، فإذا غُلب وضعه، فدخل عليه الطبيب يومًا وهو كذلك فقال: إن هذا لا يحل لك؛ فإنك تعين على نفسك، وتكون سببًا لفوات مطلوبك»[١].

فهذا رغم مرضه- يجاهد ليقرأ ويزداد علمًا.

---

(١) «روضة المحبين»: ٧٠.

وقال الإمام عيسى بن موسى:

«مكثت ثلاثين سنة أشتهى أن أشارك العامة فى أكل هريسة السوق فلا أقدر على ذلك؛ لأجل البكور إلى سماع الحديث»[1].

وقال الإمام عبد القادر الجيلانى رحمه الله تعالى:

«كنت أقتات بخرنوب الشوك، وقمامة البقل، وورق الخس من جانب النهر والشط، وبلغت الضائقة فى غلاء نزل بغداد إلى أن بقيت أيامًا لم آكل فيها طعامًا؛ بل كنت أتبع المنبوذات أطعمها»[2].

وهذا جندى من الجنود الغربيين يحدث عن مجاهدته فى تعلم بعض الفنون، فيقول:

«تعلمت وأنا جندى بسيط بمرتب ستة بنسات فى اليوم... ولم يكن لدى مال أشترى به مصباحًا أو زيتًا، وكان من النادر فى ليالى الشتاء أن أحصل على نور ما عدا نور النار، وذلك أثناء نوبتى فى الخدمة فقط، وكنت أضطر أن أتخلى عن مُشترى قسم من القوت الضرورى لى؛ لأشترى قلم رصاص أو ورقًا ولو بقيت متحملاً آلام الجوع الشديد، ولم يكن لى دقيقة من الوقت أستقلُّ بها لنفسى، فكان على أن أقرأ وأكتب بين حديث وقهقهة وغناء وجَلَبة عدد لا يقل عن عشرين جنديًا ممن لا يفكرون بشىء...

(١) «ذيل طبقات الحنابلة»: ١/٢٩٨.

(٢) «الدلائل النورانية لطالب الربانية»: ١٥٤- ١٥٥.

وكان مجموع ما يوفره كل منا بعد نفقاته بنسين فى الأسبوع، وأذكر أنى احتلت مرة لتوفير نصف بنس بعد نفقاتى الضرورية اليومية، وصممت على أن أشترى به سمكة فى الصباح، وكان الجوع قد بلغ منى مبلغه ولكننى لما خلعت ثيابى فى الليل وجدت أن نصف البنس قد ضاع، فغطيت رأسى بملاءتى الحقيرة وجعلت أبكى كالطفل».

ثم قال:

«إذا كنت فى وسط هذه الأحوال الصعبة أتمكن من تحصيل العلم، فهل يبقى فى العالم كله شاب يجد لنفسه عذرًا فى القعود عن الدرس والتحصيل»[1].

٢- الدعاء الصادق والالتجاء إلى الله تعالى:

فهو المسئول سبحانه أن يقوى إرادتنا، ويعلى همتنا، ويرفع درجاتنا.

٣- اعتراف الشخص بقصور همته وأنه لابد له أن يطورها ويعلو بها:

وهذا أمر أوليّ نفسيّ لا مناص منه فى هذا الباب، ومن ثَمّ لابد أن يعتقد أنه قادر على أن يكون من أهل الهمّة العالية، فهذا الأمران - الاعتراف بقصور الهمّة، واعتقاد إمكانية تطويرها- عاملان مهمان لابد منهما فى محاولة تطوير الهمّة، وبدونهما لا يكون الشخص قد خطا خطوات صحيحة.

(١) «سبيلك إلى الشهرة والنجاح»: ٣٥- ٣٦.

٤- قراءة سير سلف الأمة:

أهل الجد والاجتهاد والهمّة العالية، الذين صان الله تعالى بهم الدين، فكم من إنسان قرأ سيرة صالح مجاهد فتغيرت حياته إثر ذلك تغيرًا كليًا، وصلح أمره وحسن حاله.

يقول الإمام ابن الجوزى رحمه الله تعالى:

«أعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشِرهم، لا نرى فيهم ذا همة عالية فيقتدى بها المبتدئ، ولا صاحب ورع فيستفيد منه المتزهد[1]، فالله الله، وعليكم بملاحظة سير القوم، ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم، فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم... ولقد نظرت فى ثَبَت الكتب[2] الموقوفة فى المدرسة النظامية[3] فإذا به يحتوى على نحو ستة آلاف مجلد، وفى ثَبت كتب أبى حنيفة، وكتب الحميدى[4]، وكتب شيخنا عبد الوهاب[5]، وابن

(١) يقول هذا عن أهل زمانه، فماذا نقول عن أهل زماننا؟ إلى الله المشتكى.

(٢) أى فهرست الكتب.

(٣) وهى المدرسة المنسوبة إلى نظام الملك الوزير المشهور.

(٤) الإمام الكبير شيخ الإمام البخارى، عبد الله بن الزبير القرشىّ الأسدىّ الحُميدىّ المكىّ، أبو بكر، توفى بمكة سنة ٢١٩ رحمه الله تعالى. انظر «التقريب»: ٣٠٣.

(٥) الشيخ الإمام، الحافظ المفيد، الثقة المسند، أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك بن أحمد البغدادىّ الأنماطىّ، ولد سنة ٤٦٢، وجمع فأوعى، وكان حسن المعاشرة، سريع الدمعة، على طريقة السلف، توفى سنة ٥٣٨ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ١٣٤- ١٣٧.

ناصر[١]، وكتب أبى محمد الخشاب[٢]، وكانت أحمالاً، وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه، ولو قلت: إنى قد طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر، وأنا بعد فى الطلب[٣].

فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم وقدر هممهم وحفظهم وعباداتهم و غرائب علومهم ما لا يعرفه مَن لم يطالع، فصرت أستزرى ما الناس فيه، وأحتقر همم الطلاب، ولله الحمد»[٤].

وقال على بن الحسن بن شقيق[٥]:

«قمت لأخرج مع ابن المبارك[٦] فى ليلة بادرة من المسجد، فذاكرنى عند الباب بحديث، أو ذاكرته، فما زلنا نتذاكر حتى جاء المؤذن للصبح»[٧].

(١) الإمام المحدث الحافظ، مفيد العراق، أبو الفضل محمد بن ناصر بن محمد السَلامِىّ البغدادىّ، ولد سنة ٤٦٧، وقرأ ما لا يوصف كثرة، وحصل الأصول، وجمع وألف،وبَعُد صيته، وكان فصيحًا مليح القراءة، قوى العربية، جم الفضائل، توفى سنة ٥٥٠ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٢٦٥- ٢٧١.

(٢) الشيخ الإمام، العلامة المحدِّث، إمام النحو، أبو محمد عبد الله بن أحمد البغدادىّ، ابن الخشاب، يُضرب به المثل فى العربية، ولد سنة ٤٩٢، وقرأ كثيرًا، وفاق أهل زمانه فى علم اللسان، وكان له أحوال عجيبة فى التبذل وقلة النظافة، توفى رحمه الله تعالى سنة ٥٦٧. انظر المصدر السابق: ٥٢٣- ٥٢٨.

(٣) انظر إلى همة هذا الإمام القعساء، رحمه الله.

(٤) «قيمة الزمن عند العلماء»: ٣١.

(٥) المروزىّ، له ترجمة مختصرة فى «الجرح والتعديل»: ٦/ ١٨٠.

(٦) عبد الله بن المبارك المروزىّ الحنظلىّ -بالولاء- ثقة ثبت، فقيه عالم، جواد، مجاهد، جمعت فيه خصال الخير. توفى سنة ١٨١ وله ثلاث وستون سنة. انظر «التقريب»: ٣٢٠.

(٧) «نزهة الفضلاء»: ٢/ ٦٥٧.

وقال محمد بن على السلمى[1]:

«قمت ليلة سحرًا لآخذ النوبة على ابن الأخرم[2]، فوجدت قد سبقنى ثلاثون قارئًا، ولم تدركنى النوبة إلى العصر»[3].

وهذا الخبر كلما قرأته تعجبت من همة أولئك الأطهار، جعلنا الله منهم.

٥- مصاحبة صاحب الهمّة العالية:

إذ كان قرين بالمقارن يقتدى، والنظر فى أحواله وما هو عليه، وكيف يُختصر له الزمان اختصارًا نافعًا مفيدًا.

وهذا من أعظم البواعث على علو الهمّة؛ لأن البشر قد جُبلوا على الغيرة والتنافس ومزاحمة بعضهم بعضًا، وحُب المجاراة فى طبائع البشر أمر لا ينكر.

٦- مراجعة جدول الأعمال اليومى، ومراعاة الأولويات، والأهم فالمهم:

وهذا أمر مفيد فى باب تطوير الهمّة، إذ كلما كان ذلك الجدول بعيدًا عن الرتابة والملل كان أجدى فى معالجة الهمّة، ومثال ذلك

---

(١) لم أقف له على ترجمة.

(٢) مقرئ دمشق، العلامة أبو الحسن محمد بن النضر بن مُرّ الربَعى الدمشقى، ابن الأخرَم، كان يحفظ كثيرا من التفسير ومعانيه، وكانت له حلقة عظيمة بجامع دمشق، توفى رحمه الله تعالى سنة ٣٤١ وعاش ٨١ سنة. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ٥٦٤- ٥٦٦.

(٣) المرجع السابق: [illegible]

شخص اعتاد أن يزور أقاربه أو صحبه كل يوم، ويقضي الساعات الطوال معهم بغير فائدة تذكر، فمراجعة مثل هذا الشخص لجدول عمله تفيده أيما فائدة بحيث يقلل من تلك الزيارات لصالح أعمال أخرى تعود على همته بالفائدة.

٧- التنافس والتنازع بين الشخص وهمته:

أعني بهذا أن على مريد تطوير همته أن يضيف أعباءً وأعمالاً يومية لنفسه لم تكن موجودة في برنامج حياته السابق، بحيث يحدث نوعًا من التحدي داخل الإنسان لإنجاز ما تحمله من أعباء جديدة، ويجب أن تكون هذه الإضافة مدروسة بعناية وإحكام حتى لا يصاب الشخص بالإحباط واليأس.

ويجب عليه كذلك أن يحسن اختيار هذه الأعمال والأعباء الجديدة بحيث تكون مبلغة له إلى الكمال، «فمن كانت همته حفظ جميع كتب محمد بن الحسن[١] فالظاهر أنه يحفظ أكثرها أو نصفها»[٢].

فالتحدي الذي نشأ في نفسه بسبب رغبته في حفظ كتب معينة سيوصله إلى حفظ أكثرها، والله أعلم.

---

(١) محمد بن الحسن بن فَرْقد، العلامة فقيه العراق، أبو عبد الله الشيبانيّ الكوفيّ، صاحب أبي حنيفة، ولد بواسط ونشأ بالكوفة، وأخذ عنه الشافعيّ فأكثر جدا، وولي القضاء للرشيد بعد أبي يوسف، وكان فصيحًا إلى الغاية. توفي سنة ١٨٩ بالري رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٩/ ١٣٤- ١٣٦.

(٢) «تعليم» المتعلم»: ٦٠.

٨- الدأب فى تحصيل الكمالات والتشوق إلى المعرفة:

فمن استوى عنده العلم والجهل، أو كان قانعًا بحاله وما هو عليه فكيف تكون له همة أصلاً، قال ابن حجر[١]. رحمه الله يصف حال الإمام جلال الدين البُلْقِينى[٢]:

«ما رأيت أحدًا ممن لقيته أحرص على تحصيل الفائدة منه، بحيث إنه كان إذا طرق سمعَه شىء لم يكن يعرفه لا يقر ولا يهدأ ولا ينام حتى يقف عليه ويحفظه، وهو على هذا مكب على الاشتغال، محب فى العلم حق المحبة»[٣].

وقال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز:

«إن نفسى تواقة، وإنها لم تُعط من الدنيا شيئًا إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه، فلما أُعطِيَت ما لا أفضل منه فى الدنيا تاقت إلى ما هو أفضل منه -يعنى الجنة»[٤].

---

(١) أحمد بن على بن محمد، الأستاذ إمام الأئمة، أبو الفضل الكنانىّ العسقلانى المصرىّ الشافعىّ، ويُعرف بابن حجر، وهو لقب لبعض آبائه، ولد سنة ٧٧٣ بمصر القديمة، ونشأ بها يتيمًا، وجد فى العلوم حتى بلغ الغاية، وله المصنفات الحسنة، وولى بعض المناصب كالقضاء والحسبة والإمامة، توفى بالقاهرة سنة ٨٥٢ رحمه الله تعالى. انظر «الضوء اللامع»: ٢/ ٣٦- ٤٠.

(٢) عبد الرحمن بن عمر بن سلامة العسقلانىّ الأصل، ثم البُلْقِينىّ المصرىّ، أبو الفضل جلال الدين، من علماء الحديث بمصر، ولى القضاء مرارًا وانتهت إليه رئاسة الفتوى بعد أبيه، وله مصنفات، توفى بالقاهرة سنة ٨٢٤. انظر «الأعلام»: ٣/ ٣٢٠.

(٣) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع»: ٤/ ١٠٩.

(٤) «عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين»: ٣٤.

٩- الابتعاد عن كل ما من شأنه الهبوط بالهمّة وتضييعها:

كثير من الصالحين تضيع طاقاتُهم فى أمور لا تعود عليهم بالنفع بل قد يكون فيها كثير من الضرر، فمن صور هذا التضييع:

أ- كثرة الزيارة للأقارب بدون هدف شرعىّ صحيح، ولا غرض دنيوىّ فيه منفعة وفائدة معتبرة.

ب- كثرة الزيارة للأصحاب والإخوان بدعوى الأخوة والتناصح، فيكثر فى المجلس اللغو والمزاح وتقل الفائدة.

يقول الإمام ابن الجوزىّ رحمه الله تعالى:

«أعوذ بالله من صحبة البطّالين، لقد رأيت خلقًا كثيرًا يجرون معى فيما اعتاد الناس من كثرة الزيارة ويسمون ذلك التردد: خدمة، ويطيلون الجلوس، ويُجرون فيه أحاديث الناس وما لا يعنى ويتخلله غيبة، وهذا شيء يفعله فى زماننا كثير من الناس، وربما طلبه المزور وتشوق إليه واستوحش الوحدة، وخصوصًا فى أيام التهانى والأعياد، فتراهم يمشى بعضهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام؛ بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان.

فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء والواجب انتهابُه بفعل الخير كرهتُ ذلك وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرت عليهم وقعت وَحشة لموضع قطع المألوف، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان، فصرت

أدافع اللقاء جهدى، فإذا غُلبت قصرت فى الكلام لأتعجل الفراق»[1].

وكلام الإمام هذا ينطبق -فى الجملة- على حال كثير من اللقاءات والاجتماعات التى يقوم بها الناس اليوم.

جـ- الانهماك فى تحصيل المال بدعوى التجارة وحيازة المال النافع للإسلام وأهله، ثم لا يلبث هذا الأمر أن ينقلب إلى تحصيل محض، وحب للدنيا والانغماس فيها، ومن ثَمّ يقسو قلب الشخص وتنحط همته.

د- تكليف الموظف نفسه بعملين: صباحىّ ومسائىّ بدون حاجة أو ضرورة ملجئة، وإنما دفعه لهذا حُب هذه الدنيا والتمتع فيها.

هـ- كثرة التمتع بالمباح، والترف الزائد، والترفل فى النعيم، وكل هذه الأمور من العوامل الفتاكة القاضية على الهمّة مهما قيل فى تبريرها وتعليلها.

ذكر ابن حجر رحمه الله أن تاج الدين المراكشىّ -أحد فقهاء الشافعية[2]- كان قد «انقطع بالمدرسة الأشرفية ملازمًا للقراءة

(١) «قيمة الزمن عند العلماء»: ٢٨.

(٢) محمد بن إبراهيم بن يوسف، تاج الدين المراكشى، الفقيه الشافعىّ، ولد بالقاهرة، بعد السبعمائة، وتقدم فى الفنون، وكان طويل النفَس، كان مطموس العينين يبصر بإحداهما قليلاً، وكان يعطى الأجرة لمن يطالع له، توفى سنة ٧٥٢ رحمه الله تعالى. انظر «الدرر الكامنة»: ٣/ ٣٨٦- ٣٨٧.

والاشتغال، صبورًا على ذلك جدًا، بحيث يمتنع عن الأكل والشرب[(١)] والملاذ بسبب ذلك»[(٢)].

وهذه الأمور من المباحات قطعًا، ولكن ذلك الفقيه علم أن الإكثار منها والولع فيها سبب لسقوط الهمّة وضعف العمل.

وذكر السبكى[(٣)] أن أباه الإمام تقىّ الدين[(٤)] «كان من الاشتغال على جانب عظيم بحيث يستغرق غالب ليله وجميع نهاره... كان يخرج من البيت صلاة الصبح فيشتغل على المشايخ إلى أن يعود قريب الظهر، فيجد أهل البيت قد عملوا له فرّوجًا فيأكله ويعود إلى الاشتغال إلى المغرب فيأكل شيئًا حُلوًا لطيفًا، ثم يشتغل بالليل، وهكذا لا يعرف غير ذلك، حتى ذكر لى أن والده قال لأمه: هذا الشاب ما يطلب قط درهمًا ولا شيئًا فلعله يرى شيئًا يريد أن يأكله فضعى فى منديله درهمًا

---

(١) أى عن فضولهما.

(٢) «الدرر الكامنة»: ٣/ ٣٨٧.

(٣) عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى السبكىّ، أبو نصر تاج الدين الشافعىّ، ولد سنة ٧٢٧، وأمعن فى طلب الحديث حتى مهر وهو شاب مع ملازمة الاشتغال بالفقه والأصول والعربية، انتهت إليه رئاسة القضاء والمناصب بالشام، وحصل له محن شديدة وهو ثابت، وكان كريمًا مهيبًا، توفى سنة ٧٧١ رحمه الله تعالى. انظر «الدرر الكامنة»: ٣/ ٣٩- ٤٢.

(٤) على بن عبد الكافى بن على السبكىّ، تقى الدين، أبو الحسن الشافعىّ، ولد بـ«سبك العبيد» بمصر سنة ٦٨٣، وتفقه وطلب الحديث وارتحل، ثم تولى قضاء دمشق سنة ٧٣٩، وكان ينظم كثيرًا، وشعره وسط، وله مصنفات كثيرة. توفى بالقاهرة سنة ٧٥٦ رحمه الله تعالى. انظر «الدرر الكامنة»: ٣/ ١٣٤- ١٤٢.

أو درهمين، فوضعت نصف درهم، قالت الجدة: فاستمر نحو جمعتين وهو يعود والمنديل معه والنصف فيه إلى أن رمى به إليّ وقال: أيش أعمل بهذا؟ خذوه عنى»[١].

وهذا مثال على أن الفتيان إذا أحسن توجيههم وتربيتهم ارتفعوا عن الترف والتنعم، وأخذوا بأسباب المعالى والرفعة.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

«قال لى يومًا شيخ الإسلام[٢] قدّس الله روحه فى شيء من المباح: هذا ينافى المراتب العالية وإن لم يكن تركه شرطًا فى النجاة، فالعارف يترك كثيرًا من المباح برزخًا بين الحلال والحرام»[٣].

هذا والذى لام عليه الإمام ابن تيمية تلميذه «شيء من المباح»، فما بالكم بما نراه اليوم من تمتع الدعاة بمباحات ونعيم لا يعرفه الملوك السالفون.

و- الاستجابة للصوارف الأسرية استجابة كلية أو شبه كلية:

فنجد الشخص منهمكًا فى تلبية مطالب زوجه وعياله وقد لا تكون مهمة فى أحيان كثيرة، وقد يعترض معترض ويورد أحاديث لا تدل على

(١) «طبقات الشافعية»: ١٠/ ١١٤.

(٢) شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، ابن تيمية، سيرته مشهورة، توفى سنة ٧٢٨ رحمه الله تعالى. انظر «الدرر الكامنة»: ١/ ١٥٤ - ١٧٠.

(٣) «مدارج السالكين»: ٢/ ٢٦.

ما ذهب إليه مثل «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى**»[١]، ومثل «**كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت**»[٢]، وغير ذلك، وإنما هذه الأحاديث فى الحث على إحسان الخُلق مع الأهل وعدم تركهم وتضييعهم بالكلية كما لا يخفى، وقد دخلت علينا فى حياتنا الأسرية كثير من التقاليد الغربية فى أمر الاحتفاء الزائد بالأهل والأولاد، ودعوى ضرورة بناء مستقبلهم، وغير ذلك مما حاصله نسيان الكفالة الإلهية والضمان الربانىّ.

ز- التسويف:

وهو داء عضال ومرض قتال، إذ إن «سوف» جند من جنود إبليس، قال الشاعر:

ولا أدّخر شغل اليوم عن كسل ... إلى غدٍ إنّ يوم العاجزين غدُ

ح- الكسل والفتور:

«لابد للمرء من البعد عن الكسل لأنه قاتل للهمّة مُذهب لها، وخاصة عند تقدم العمر وعجز الجسم، فهذا شيخ الإسلام زكريا الأنصارىّ[٣] رحمه الله تعالى «كان يصلى النوافل من قيام مع كبر سنه

(١) أخرجه ابن ماجة فى كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء، وأخرجه كذلك الترمذىّ وابن حبان.

(٢) أخرجه أبو داود فى كتاب الزكاة، باب فى صلة الرحم.

(٣) زكريا بن محمد الأنصارىّ المصرىّ، عُمِّر طويلاً ورزق بتلامذة نجباء، وبارك الله له فى مصنفاته، توفى بالقاهرة عن مائة سنة، وذلك سنة ٩٢٦ رحمه الله تعالى. انظر «الكواكب السائرة»: ١/ ١٩٦- ٢٠٧.

وبلوغه مائة سنة أو أكثر، وهو يميــل يمينًا وشمالاً لا يتمالك أن يقف بغير ميل للكبر والمرض، فـقيل له فى ذلك فقال: يا ولدى، النفس من شأنها الكسل وأخاف أن تغلبنى وأختم عمرى بذلك»[1].

وهذه أقوال تبين ما فى العجز والكسل والفتور من آفات:

- «ما لزم أحــد الدَّعَة إلا ذَلّ، وحب الهـوينا يُكسب الذلّ، وحب الكفاية[2] مفتاح العجز»[3].

- وقال الصاحب[4].

«إن الراحة حيث تعب الكرام أودع لكنها أوضع، والقعود حيث قام الكرام أسهل لكنه أسفل»[5].

- وقال الشاعر:

كأنّ التوانى أنكح العــجزَ ابنتَه ... وساق إليها حين أنكحها مهرًا

فراشًا وطيـئًا ثم قال له: اتكئ ... فقُصرا كما لا شك أن تلدا فقرًا

(١) المصدر السابق: ١/ ٢٠٢.

(٢) أى حب الاكتفاء بما عليه الإنسان وعدم الرغبة فى الارتقاء.

(٣) «محاضرات الأدباء»: ١/ ٤٤٨.

(٤) الوزير الكبير العلامة الصاحب أبو القاسم إســماعيل بن عباد بن عباس الطالقانىّ، الأديب الكاتب، وزير الملــك مـؤيد الدولة بويه بن ركن الدولة. صــحب الــوزير أبا الفـضل بن العميد ومن ثم شهر بالصاحب. كـان شيعيًا معتزليًا، تيّاهًا جبارًا، فصيـحًا متقعرًا. مات بالرى سنة ٣٨٥ عن تسع وخمسين سنة. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٦/ ٥١١- ٥١٤.

(٥) المرجع السابق.

- وقد قيل:

«زُوِّج العجز التوانى فنتج بينهما الحرمان»[1].

ط- ملاحظة الخلق:

أكثر الخلق مفرّطون، وهم فى الغفلة غارقون؛ فهم صوارف عن الهمّة العلية حيث يُغتر بهم ويقلدون فى تفريطهم، فالحذار الحذار من غفلة الغافلين والاغترار بها.

وقال الشاعر:

ترجو غدًا وغد كحاملة فى الحىِّ لا يدرون ما تلد

«والإسراع فى القيام بعمل من الأعمال يُزيل ما فيه من العناء، أما التأجيل فمعناه الإهمال، والعزم على العمل يصير مع الوقت عزمًا على عدم العمل، وما أشبه من يعمل عملاً بمن يُلقى بذارًا فى الأرض فإذا هو لم يعمله فى حينه فإنه يبقى إلى الأبد بدون ثمرة، وليس صيف الزمان من الطول بحيث إن الأعمال المؤجلة تنضج ثمارها فيه»[2].

«وإن للتأخر عواقب مشئومة، فتأخر يوليوس قيصر عن قراءة رسالة وردت إليه كلفته خسارة حياته حين بلوغه مجلس الأعيان الرومانىّ، والكولونيل راهل قائد موقع ترانتون لما جاءه رسول يحمل إليه كتابًا

(١) المرجع السابق.

(٢) «سبيلك إلى الشهرة والنجاح»: ١٠٦.

متضمنًا نبأ اجتياز واشنطن لنهر ديلاور كان يلعب بالورق فوضع الكتاب فى جيبه ولم يفضّه إلا بعد انتهاء اللعبة، وللحال سار فى مقدمة جنوده إلى ميدان القتال فقتل ثمّ أخذ رجاله أسرى، فتأخّر بضع دقائق جَرَّ عليه خسارة الشرف والحرية والحياة»[1].

هذان مثالان على ما يمكن أن يجره التسويف، ولا تستهن أخى الداعية بعاقبته فإن التسويف فى الدعوة وغزو القلوب قد يؤخر تَسَنُّم الشرف بتمكين دعوة الله فى الأرض، وقد لا تتاح الفرص المتوفرة الآن -على قلتها- فى المستقبل القريب فتعضَّ حينذاك أصابعك ندمًا على ما فرطت فيه، وتُحصر الدعوة بسبب تسويفك أنت وأمثالك فى مضايق لا عهد لها بها، والله الموفق.

***

(١) المصدر السابق، ص ١٠٤.

العلامات الدالة على علو همة الشخص

إضافة إلى كل ما ذكر يمكن أن نذكر التالى:

١- تحرُّقه على ما مضى من أيامه وكأنه لم يكن قطُّ صاحب الهمّة المتألق المنجز لكثير من الأمور، وأكثر ما يكون ذلك على فراش الموت.

٢- كثرة همومه، وتألمه لحال المسلمين وما يجدون من ظلم وعَنَت.

٣- موالاته النصيحة وتقديم الحلول والاقتراحات -التى تقوم بالإسلام والمسلمين وتعزهم- لمن يأمل فيهم التغيير ويرجو منهم الإصلاح.

٤- طلبه للمعالى دائمًا فيما يفعله أو يتعلمه أو يصلحه.

قال الأستاذ محمد الخضر حسين:

«طالب العلم الذى لا يدع بابًا من أبوابه إلا ولجه... يكون أعظم همة ممن لا يطرق منه كل باب، أو لم يعرج منه على كل مسألة قيمة، وطالب العلم الذى يخوضه بنظر حر ويتناول مباحثه بنقد وبصيرة يكون أعظم همة ممن يجمع مسائله حفظًا ويتلقاها كما يتلقى حاكى الصدى لا يكلفك غير إملائها عليه»[١].

(١) «رسائل الإصلاح»: ٢/ ٩٠- ٩١.

٥- كثرة شكواه من ضيق الوقت وعدم قدرته على إنجازه ما يريده في اليوم والليلة.

وليست هذه الشكوى من نمط ما نسمع من ترداد كثير من الناس لها، ولكنها شكوى حقيقية نابعة من عمل دؤوب يستغرق أوقات الشخص فيثبت تلك الآهات الصادقة.

٦- قوة عزمه وثبات رأيه وقلة تردُّده:

فهو إذا قرّر أمرًا راشدًا لا يسرع بنقضه بل يستمر فيه ويثبت عليه حتى يقضيه ويجنى ثمرته، ولا شك أن كثرة التردد ونقض الأمر بعد إبرامه من علامات تدنى الهمّة.

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة ... فإن فساد الرأى أن تتردّدا

وقال الشاعر أيضًا:

لكلٍ إلى شَأو العُلى حركات ... ولكنْ قليلٌ فى الرجال ثبات(١)

***

(١) الشأو: الطلب والسعى.

كيفية استثمار همة الناس

إذا عرفنا ذلك كله فيجب علينا أن نحسن استثمار الهمّة عند الناس، ونستخرج منهم دفائن الكنوز وخبايا الصدور والعقول.

والناس أمام المسلم الصالح ثلاثة أقسام:

صالح ملتزم بدينه، ومستقيم محافظ على الفرائض والواجبات، وثالث مضيع ضائع.

أما القسم الثالث فيترك لحين إفاقته.

وأما القسم الثانى، وهم المستقيمون المحافظون ولكن فى استقامتهم ومحافظتهم تخليط فتستثمر هممهم كما يأتى، والله أعلم.

١- إن كانوا من ذوى اليسار والغنى يوجهون للمشاركة فى أعمال الخير العامة مثل بناء المساجد، وإغاثة المنكوبين، وإقامة المنشآت النافعة ونحو ذلك، وخير ما يمكن أن يشاركوا فيه هو تلك الهيئات والجمعيات الإسلامية المنتشرة فى العالم الإسلامى، ولله الحمد، حيث إن الكوارث والنكبات التى تحيط بالعالم الإسلامى والتى توضحها وتتبناها تلك الهيئات كفيلة بإثارة نوازع الشفقة والخير فيهم، فينشطون للمساعدة بهمة جيدة.

٢- إن كانـوا من ذوى الدخول المتـوسطة -وهذا حال مـعظم ذلك القسم وتـلك الفئة- فـيوجـهون إلى سـماع الدروس الطيـبة، وخطب الجمعة التى يؤديها خطباء مشهورون بالتأثير على العامة.

٣- ومن الحلول الناجحة لـهذه الفئة هو توجيـه شبابها وتحمـيسهم للمشـاركة فى الجهاد؛ إذ كم سمـعنا عن أشخاص من عامـة الناس قد علت همتهم وارتقى بهم حماسهم حـتى شاركوا فى الجهاد الأفغانى - على سبيل المثال- وحسنت صلتهم بالله تعالى والتزموا هذا الدين، ولله الحمد.

٤- التوضيح والتبيين لهم بأنهم يضيعـون أوقاتهم فيما لا يفيد، فلو قضوا ذلك فى مجالات أجدى وأنفع لكان حسنًا.

٥- توجيههم للقراءة النافعة، إذ معظم تلك الطائفة أمّيو الثقافة وإن كانوا يحملون شهادات جامعـية، فقد عكف الناس للأسف على متابعة أخبار بعينهـا وتركوا ما ينفعهم عاجلاً وآجلاً ويثيـر فيهم الغرام إلى دار السلام.

وأما القـسم الأول فهو المعتـمد عليه والمأمـول منه الإصلاح والرقى بهذه الأمة، ويمكن استثمار همم هذا الصنف كما يأتى، والله أعلم:

١- الانتساب إلى جمـعية أو هيئة لها برنامج عـمل محدد يُنجز من خلالهـا كثير من الأمـور النافعة، وذلك مـثل بعض الهيئات الإغـاثية

المنتشرة فى العالم الإسلامى، أو جمعيات البر، أو لجان البر، أو هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وغير ذلك.

وليحذر الأخ من التأثر بما تشتمل عليه بعض هذه الهيئات من نوع خطأ أو ميل قليل عن الحق فيترك العمل كلية لأجل هذا.

٢- الانتساب إلى جماعة إسلامية صالحة من الجماعات المنتشرة فى العالم الإسلامى، وهى تعمل بجد وإخلاص لإقامة دين الله تعالى، والقائمون على تلك الجماعات لهم برامج محددة تصلح لاستثمار همم الشباب وإقامة عمل إسلامى نافع.

٣- توعية الشخص المنصوح بأن يختار لنفسه مجالاً يبدع فيه ويبرز ويكون عطاؤه من خلاله بالغًا غايته، وهمته فى إنجازه قوية عالية، فمن وجد من نفسه انصرافًا للعلم وتحصيله فليقبل عليه، ومن وجد منها ميلاً إلى الأعمال الخيرية والإغاثية فليشارك إخوانه، ومن وجد منها حبًا للجهاد ومقارعة الأعداء فلا يتوان وليقدم على بركة الله تعالى، وهكذا.

***

محاذير موجهة لأهل الهمّة العالية

هذه المحاذير التى سأذكرها خاصة بأهل الهمّة العالية فقط وليست لغيرهم من متدنّى الهمم، أو متوسطيها، وذلك لأن فيها جملة من الأمور لا يفهمها غيرهم ولا يدركها سواهم.

وقد يقول قائل: إن بعض ما أذكره فى هذا الصدد قد يخالف ما تعارف عليه كثير من أهل الصلاح والالتزام والدعوة من أن التوازن مطلوب والهمّة تكون بقدر، وأنا أوافقهم ولا أخالفهم ولكن قد يبدو بعض ما أورده مخالفًا لمنطقهم الصحيح وليس الأمر كذلك:

١- صاحب الهمّة تحلق به همته دائمًا فتأمره بإنجاز كثير من الأعمال المتداخلة فى وقت واحد، فليطعها بقدر ولا يستبعد ما تأمره به، وفى الوقت نفسه لا يقوم به كله بل يأخذ منه بقدر ما يعرف من إسعاف همته له بالقيام به.

وتزاحم الأعمال على الإنسان ومحاولة القيام بها مجتمعة أمر لا ينكره أهل الهمّة العالية، ومثال ذلك رجل مسافر فى قطار مع أهله للترويح والمتعة، فهو فى أثناء تجواله يتمتع بجمال الطبيعة، كما أن عليه أن يهتم بأطفاله وينبههم ويوجههم، ولعله بيده كتاب يقرأه أو أمر ينجزه، وهو -أيضًا- يتكلم مع زوجه ويلاطفها، وتدور فى مخيلته

عدة أفكار، وتحدث له كل هذه الأمور فى وقت واحد وقد ينجزها على وجه مقبول، وكذلك أهل الهمّة تتزاحم عليهم الأعمال الكثيرة فينجزونها كلها أو معظمها.

وهناك محذور آخر خلال ذلك وهو أن:

٢- صاحب الهمّة العالية معرض لنصائح تثنيه عن همته وتحاول أن تذكره دائمًا بأنه ﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**﴾ [الأحزاب: ٤]، وأن صاحب الصنعتين كاذب والثالثة سارق، وهكذا، فالحصيف لا يلتفت لهذه النصائح إلا بقدر محدود؛ وذلك لأن موجهى هذه النصائح قد تنشأ نصائحهم هذه لحسد اعتراهم من حال المنصوح، أو لأنهم يجهلون ما يستطيع عمله هذا الرجل ذو الهمّة العالية من أمور لا تدركها أفهامهم ولا تستطيعها هممهم.

قال ابن نباتة السعدى:

أعاذلتى[١] على إتعاب نفسى ... ورعيى فى الدجى روضَ السهاد[٢]

إذا شام الفتى برق المعالى ... فأهون فائت طيب الرقاد

٣- وصاحب الهمّة معرض لسهام العين والحسد فعليه بالأذكار المأثورة ليدرأ عن نفسه ما قد يصيبه من سهام القدر على يد الحساد.

(١) العذل: اللوم.

(٢) أى تلومه على سهره الليالى.

٤- وصاحب الهمّـة قد تعتريه فَتْـرة وضعف قليل لما يراه من تدنى همم غالب الخلق، فـلا يحزن لأجل هذه الفـترة، وليوطن نفـسه على الإحسان وعلو الهمّة مهمـا ضعف أو تخاذل مَنْ حوله، وأيا كان سبب الفترة التى تعتريه فهى أمر طبيـعىّ يعترى العاملين والسالكين، وليتذكر حديث المصطفى ﷺ:

«لكل عمل شِرّة[١]، ولكل شِرّة فَتْرة»[٢].

٥- وأهل الهمّة العالية قد يكونون مفرِّطين فى بعض الأمور التى قد لا يرون فيها تعلقًـا مباشرًا بموضوع همـمـهم، وذلك مثل بعض حقوق الأهل والأقارب، فينبـغى على من وقع فى هذا المحذور أن يلتفت إلى إصلاحه ولو بالقدر الذى يُبعد عنه سهام اللائمين.

٦- وقد تؤدى الهمّة العالية بصاحبها إلى أن يتحمس تحمسًا اندفاعيًا فيستـعجل ويرتكب من الأخطاء ما كان يمكن تلافيـه بقليل من التعقل وحساب العواقب، وعلى من وقع فى مثل هذا أن يعرف السنن الكونية وأن الأمر لا يحسم بين عشية وضحـاها، وليكن مثلُه سيدّ أولى الهمّة العالية ﷺ فـقد كان يوصى أصحابه رضى الله عنهم بالعـمل والصبر، فالصبر لا غنى عنه لأهل الهمم.

(١) الشرّة: النشاط والهمّة، والفترة: الضعف والانكسار.

(٢) الترغيب والترهيب للمنذرى: ١/ ٥١، ورواه ابن أبى عاصم وابن حبان.

٧- وأهل الهمّة العالية قد يتعرضون لأمور تؤثر فى هممهم وتطلعهم إلى معالى الأمور، وأعظم مثال على هذا التعرض للخلاف الحاصل بين الفقهاء بعين الذمّ والمقت، ونقدهم والإقلال من شأنهم، ومثاله أيضًا التعرض للجماعات الإسلامية العاملة على الساحة وذمها والتنقص من شأنها وإلصاق التهم بها بدون وجه شرعىّ معتبر فى أحيان كثيرة، ويمضى هذا الأخ سحابة يومه وليلته باحثًا عن الأخطاء متصيدًا لها، ومثل هذا الشخص إن أصبح هذا الأمر ديدنه فستتخلف همته ولا شك وتقعد به عن معالى الأمور.

يقول الأستاذ محمد الخضر حسين:

«كبير الهمّة يستبين خطأ فى رأى عالم أو عبارة كاتب فيكتفى بعرض ما استبان من خطأ على طلاب العلم ليفقهوه، ويأبى له أدبه أن ينزل إلى سقط الكلام أو يَخفَّ إلى التبجح[1] بما عنده، وقد حدثنا التاريخ عن رجال كانوا أذكياء ولكنهم ابتلوا بشىء من هذا الخُلق المكروه، فكان عوجًا فى سِيَرهم ولطخًا فى صحفهم، ولو تحاموه لكان ذكرهم أعلى ومقامهم فى النفوس أسمى، ومنزلتهم عند الله أرقى»[2].

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى:

«أعلى الهمم فى طلب علم الكتاب والسنة، والفهم عن الله ورسوله نفس المراد، وعلم حدود المنزل، وأخس همم طالب العلم قصر همته

(١) السرور.

(٢) رسائل الإصلاح: ١/ ٨٩.

على تتبع شواذ المسائل وما لم ينزل، ولا هو واقع، أو كانت همته معرفة الاختلاف وتتبع أقوال الناس، وليس له همة إلى معرفة الصحيح من تلك الأقوال، وقَلَّ أن ينتفع واحد من هؤلاء بعلمه».

٨- صاحب الهمّة العالية لابد له من المداومة على الأعمال التى تدوم ولا تنقطع:

وليتذكر صاحب الهمّة العالية أن أحبّ الأعمال إلى الله «**أدومها وإن قل**»(١)، فهمة متوسطة العلو تدوم خير من همة عظيمة متقطعة.

ولنسق إليك أخى ثلاثة أمثلة نهديها إليك فيها دلالة على ما نقول، وبها يختم هذا البحث إن شاء الله تعالى:

أما المثال الأول فهو الإمام أبو القاسم بن عساكر(٢) فقد قال عنه أبو المواهب بن صَصْرَى(٣):

---

(١) أخرجه البخارى عن عائشة رضى الله عنها فى كتاب الرقائق: باب القصد والمداومة على العمل.

(٢) الإمام العلامة، الحافظ محدث الشام، ثقة الدين أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله الدمشقى الشافعى، ولد سنة ٤٩٩، وغلب عليه الحديث فاشتهر به وبالغ فى طلبه، ورحل ولقى المشايخ، وكان دينًا، صنف التصانيف المفيدة أجلها «تاريخ دمشق»، توفى رحمه الله تعالى سنة ٥٧١ بدمشق. انظر «وفيات الأعيان»: ٣/ ٣٠٩-٣١١.

(٣) الحسن بن هبة الله بن محفوظ بن صصرى الربعى التغلبى الدمشقى، أبوالمواهب، من حفاظ الحديث، وكان محدث دمشق، له بعض المصنفات، توفى سنة ٥٨٦ عن قرابة ٥٠ سنة رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٢/ ٢٢٥.

«لم أرَ مثله، ولا من اجتمع فيه ما اجتمع فيه من لزوم طريقة واحدة مدة أربعين سنة، من لزوم الصلوات في الصف الأول إلا من عذر، والاعتكاف في شهر رمضان وعشر ذي الحجة، وعدم التطلع إلى تحصيل الأملاك وبناء الدور، قد أسقط ذلك عن نفسه، وأعرض عن طلب المناصب من الإمامة والخطابة وأباها بعد أن عرضت عليه، وأخذ نفسه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم»[١].

وهذا الشيخ كمال العباسيّ الكجراتي الهندي[٢]، كان «من عوائده أنه كان يستيقظ في الليل إذا بقي ثلثه فيغتسل ويتهجد، ويقرأ سبعة أجزاء من القرآن في الصلاة، ثم يدعو بالأدعية المأثورة، ثم يذكر الله سبحانه، ثم يصلي الفجر، ثم يشتغل بتلاوة القرآن إلى صلاة الإشراق، ثم يصلي ويجلس للدرس والإفادة فيدرس إلى زوال الشمس، ثم يتغذى ومعه جماعة من المحصلين عليه، ثم يقيل ساعة، ثم يصلي الظهر، ثم يجلس للإفتاء فيشتغل به إلى العصر، ثم يصلي، ثم يشتغل به[٣]، ثم يصلي ويقبل على أصحابه، فيتحدث معهم إلى

---

(١) تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٣٣٢.

(٢) الشيخ العالم الكبير المفتي كمال محمد العباس الكجراتي الهندي، أحد العلماء المبرزين في الفقه والأصول والعربية، ولد ونشأ بأحمد آباد، واشتغل بالعلم من صباه حتى برع وفاق أقرانه، ولي الافتاء فاشتغل بالفتيا والتدريس ٣٠ سنة، توفي سنة ١٠١٣. انظر «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام»: ٥/ ٣٤٢-٣٤٣.

(٣) أي بالإفتاء.

العشاء، ثم يدخل فى حجرته ويشتغل بمطالعة كتبه التى يدرسها إلى الثلث الأول من الليل، ثم يدخل فى المنزل، وكان من الخامسة عشرة من سنه إلى أربع وخمسين صرف عمره على هذا الطريق»[١].

وقال أبو العباس ثعلب[٢]:

«ما فقدت إبراهيم الحربى[٣] من مجلس لغة ولا نحو، من خمسين سنة»[٤].

وفى الختام أسأل الله تعالى أن يجعلنى والقارئين من أهل الهمّة العالية، وأن يبارك لنا فى أوقاتنا وأعمالنا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

***

(١) «الإعلام بمن فى تاريخ الهند من الأعلام»: ٥/ ٣٤٢-٣٤٣.

(٢) العلامة المحدث، إمام النحو، أبو العباس أحمد بن يحيى بن يزيد، الشيبانى بالولاء، البغدادى، صاحب التصانيف، ولد سنة ٢٠٠، وكان ثقة حجة، دينًا صالحًا، مشهورًا بالحفظ، عُمِّر وأصم، وصدمته دابة فوقع فى حفرة، ومات فيها سنة ٢٩١ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٤/ ٥-٧.

(٣) الشيخ الإمام، الحافظ العلامة وشيخ الإسلام، أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق إبراهيم ابن إسحاق بن إبراهيم البغدادى الحربى، صاحب التصانيف، ولد سنة ١٩٨، كان إمامًا فى العلم، رأسًا فى الزهد، عارفًا بالفقه، بصيرًا بالأحكام، حافظًا للحديث، مميزًا للعلة، صنف كتبًا كثيرة، توفى سنة ٢٥٨ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٣/ ٣٥٦-٣٧٢.

(٤) نزهة الفضلاء: ٢/ ٩٨٢.

فهرست الأحاديث والآثار

***

فهرست الأعلام

فهرست المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١- **«الأعلام»**: الأستاذ خير الدين الزركلى. نشر مؤسسة العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، سنة ١٩٨٠.

٢- **«الإعلام بمن فى تاريخ الهند من الأعلام»**: للشيخ عبد الحى الندوى. تعليق سماحة الشيخ أبى الحسن الندوى. نشر دار عرفان، الهند، سنة ١٤١٢هـ.

٣- **«تاريخ عمر بن الخطاب»**: للإمام ابن الجوزى. دار إحياء علوم الدين، دمشق. بتعليق الشيخ أسامة الرفاعى.

٤- **«تذكرة الحفاظ»**: الإمام الذهبى. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٥- **«تذكرة دعاة الإسلام»**: الأستاذ المودودى. الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٧هـ.

٦- **«ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك»**: القاضى عياض. طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب.

٧- **«تعليم المتعلم فى طريق التعلم»**: تأليف الشيخ برهان الدين الزرنوجى. تحقيق صلاح الخيمى ونذير حمدان. نشر دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٨- «**تقريب التهذيب**»: الحافظ ابن حجر العسقلانى= أحمد بن على (ت ٨٥٢). تحقيق الأستاذ محمد عوامة.

٩- «حلية الأولياء»: الإمام أبو نعيم الأصبهانى. دار الفكر، بيروت.

١٠- «**الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة**»: ابن حجر العسقلانى. تحقيق محمد سيد جاد الحق. نشر دار الكتب الحديثة، القاهرة.

١١- «الدلائل النورانية لطالب الربانية»: عدنان الرومى وعلى الهزاع. مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٥هـ.

١٢- «ذيل طبقات الحنابلة»: الإمام ابن رجب الحنبلى. دار المعرفة بيروت.

١٣- «**رسائل الإصلاح**»: تأليف الشيخ محمد الخضر حسين. نشر دار الإصلاح، الدمام.

١٤- «**روضة المحبين**»: الإمام ابن القيم. توزيع دار الباز، مكة المكرمة.

١٥- «**سبيلك إلى الشهرة والنجاح**»: أوريزون ماردن. دار الكاتب العربى ودار الشواف، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٢.

١٦- **سنن أبى داود وابن ماجة**.

١٧- «**سير أعلام النبلاء**»: الحافظ الذهبى= محمد بن أحمد (ت ٧٤٨). تحقيق مجموعة من الأساتذة. نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى.

١٨- صحيح ا البخارى ومسلم.

١٩- «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع»: للسخاوى. نشر مكتبة دار الحياة، بيروت.

٢٠- «عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين»: تأليف عبد الستار الشيخ. دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٢١- «الفوائد»: لابن القيم. دار النفائس، بيروت الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٩هـ.

٢٢- «فوات الوفيات»: محمد بن شاكر الكتبى (ت ٧٦٤). تحقيق د. إحسان عباس. نشر دار الثقافة، بيروت، طبعة سنة ١٩٧٤م.

٢٣- «قيمة الزمن عند العلماء»: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة. مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٤هـ.

٢٤- «الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة»: الشيخ نجم الدين الغزى. تحقيق جبرائيل جبور. نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٩٧٩م.

٢٥- «لفتة الكبد إلى نصيحة الولد»: للحافظ ابن الجوزى. المطبعة السلفية.

٢٦- «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد»: الحافظ الهيثمى. منشورات مؤسسة المعارف، بيروت، سنة ١٤٠٦هـ.

٢٧- «مجلة المجتمع»: عدد ١٣٦، ٩٩٨.

٢٨- **«محاضرات الأدباء، ومحاورات الشعراء والبلغاء»**: لأبى القاسم حسين ابن محمد الراغب الأصبهانى. نشر دار مكتبة الحياة، بيروت.

٢٩- **«مدارج السالكين»**: ابن القيم. دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة سنة ١٩٧٢م.

٣٠- **«نشر المثانى لأهل القرن الحادى عشر والثانى»**: للشيخ محمد بن الطيب القادرى. تحقيق الأستاذين محمد حجى وأحمد التوفيق. نشر مكتبة الطالب، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٣هـ.

٣١- **«وفيات الأعيان»**: ابن خلكان (ت ٦٨٣). تحقيق د. إحسان عباس. نشر دار الثقافة، بيروت.

٣٢- **«الوقت عمار أو دمار»**: جاسم المطوع. دار الدعوة، الكويت، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٨هـ.

٣٣- **«الوقت هو الحياة»**: د. عبد الستار نوير. دار الثقافة، قطر، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٦هـ.

٣٤- **«نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء»**: للمؤلف. دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى، سنة ١٤١١هـ.

٣٥- **«نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»**: الإمام أحمد بن محمد المغربى التلمسانى. بتحقيق الشيخ البقاعى. الطبعة الأولى. سنة ١٤٠٦هـ، دار الفكر، بيروت.

محتويات الكتاب

الموضوع **الصفحة**

***